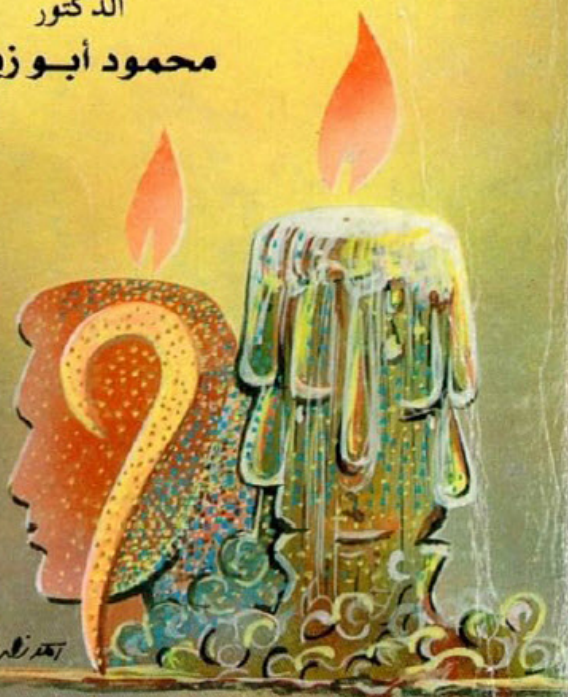


أعلام الفكر الاجتماعي

والأنثروبولوجي العربي المعاصر

الدكتور
محمود أبو زيد



(الجزء الثاني)

دار غريب

للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة



www.lisanarb.com



أعلام الفكر الاجتماعي
والأنثروبولوجي الغربي المعاصر

أعلام الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي الغربي المعاصر

الدكتور/ محمود أبو زيد



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

الكتاب : أعلام الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي الغربي المعاصر «ج ٢»

المؤلف : د. محمود أبو زيد

رقم الإيداع : ١٤٧٩٤

تاريخ النشر : ٢٠٠٧

الترقيم الدولي : 6 - 372 - 215 - 977 - I. S. B. N.

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للناسخ، ولا يُسمح

بإعادة نشر هذا العمل كاملاً أو أى قسم من أقسامه ، بأى

شكل من أشكال النشر إلا بإذن كتابي من الناشر

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاطرغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ١٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى النجالة - القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق } ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

والمعرض الدائم }

DarGhareeb@hotmail.com

البريد الإلكتروني :

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	- تصدير
٩	- أعلام الفكر الاجتماعي والانثربولوجي الغربي المعاصر
١٧١	- قائمة الأعلام وترتيبها الرقمي

تصدير

هذا هو الجزء الثانى من «أعلام الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى المعاصر» الذى نحاول فيه الاقتراب ممن نعتقد أنه من الضرورى على الباحثين فى علم الاجتماع وفى الأنثربولوجيا أن يتعرفوا على ما يشتمل عليه من أعلام كان - ولا يزال - لهم دورهم المؤثر فى مسيرة وتطور هذين النسقين العلميين، وبذلك يتكامل هذا الجزء مع ما سبق أن عرضنا له فى الجزء الأول من الكتاب وصولا إلى الجزء الثالث الذى آثرنا أن تكتمل به خطة الكتاب ككل بتناولنا لما تبقى - بعد هذا الجزء الثانى - من أعلام وأسماء.

ولقد سبق أن قلنا فى تصديرنا للجزء الأول أنه ليس المقصود بهذا الكتاب أن يكون مجرد وصف أو تأريخ للأعلام الذين نعرض لهم بقدر ما هو (الكتاب) محاولة لمناقشة ما نعتقد أنه أهم ما انطوت عليه كتاباتهم من مبادئ وأفكار ونظريات، ولست أظن أن شيئا من هذا المنهج قد طرأ عليه ما يغيره أو يحيد به عما كان وسرنا عليه من قبل سواء من حيث اختيارنا للأعلام ذاتهم أو من حيث تحديدنا للإطار الزمنى الذى ينتمى إليه هؤلاء الأعلام أو حتى الإطار المكانى باعتبار أن القصد هو أن يدور الكتاب حول الفكر الاجتماعى والأنثربولوجى الغربى ومفكرى هذين العلمين بالذات وعلى وجه التحديد.

ولكن من المهم مع تلك الإشارة إلى أن هذا الجزء الثانى قد سعى - باعتباره واسطة العقد - إلى أن يحقق قدرًا من التوازن الكمى بين الأجزاء الثلاثة التى أرجو أن يحتويها الكتاب ككل. وهذه فى الواقع مسألة من الصعوبة بمكان نظرا لأنها أملت الخضوع لكثير من الضرورات كما دفعت إلى الكثير أيضا من البدائل والأولويات. فلم يكن من المقبول أبدا أن يجيء كتاب الأعلام فى جزء واحد فحسب نظرا للعدد

الضخم من الأعلام والمفكرين مما يجعل أى كتاب ينوء بحمله حجما وانتاجا وإخراجا، الأمر الذى ضاعف فى الحقيقة من مشكلة تخير الأعلام من نكُتَب عنه ومن نُسَقَط من حسابنا حتى تتوازن الأجزاء بقدر الإمكان. وإن كان هذا لا يعنى التقليل من أهمية الذين لم نعرض لهم أو إنكارا لعطائهم ودورهم، ودون أن يكون ذلك أيضا على حساب الغاية النهائية التى يسعى الكتاب إلى تحقيقها وهى إلقاء المزيد من الضوء على جانب من أهم جوانب الفكر الغربى المعاصر الذى يهتم بدراسة وفهم المجتمع والثقافة كيما نكون أقدر على فهم المجتمع الكبير من حولنا حتى نكون أقدر على التعامل مع مشكلات المجتمع ومشكلات الثقافة فى عصر يتسارع إيقاع تغير كل ما فيه.

والله ولى التوفيق

محمود أبوزيد

مصر الجديدة

فى مايو ٢٠٠٦

يعتبر واحدا من أشهر الفلاسفة والمفكرين الذين يمارسون نفوذاً وتأثيراً بالغين على كل الفكر الأوربي هذه الأيام فهو بلا شك رائد مدرسة التأويل المعاصر Hermeneutics (الهرمنوطيقا) متأثراً في اتجاهاته تأثراً كبيراً بالنزعة الفلسفية الفينومينولوجية Phenomenology التي يمثلها مارتن هيدجر Heidegger (١٨٨٩ - ١٩٧٦) الذي ارتبط به ارتباطاً وثيقاً كان له أثره في تكوينه الشخصي والفكري على السواء.

ولد جادامر في عام ١٩٠٠ بألمانيا وتلقى تعليمه في جامعة ميونيخ Munich وجامعة ماربورج Marburg حيث تتلمذ على أيدي مارتن هيدجر الذي أصبح صديقاً مقرباً له، ولهذا فلم يكن غريباً أن شغل منصب أستاذ الفلسفة في ماربورج وأيضاً في ليبزيغ Leipzig وفرانكفورت Frankfurt وهايدلبرج Heidelberg وكلها من كبريات الجامعات الألمانية.

ولقد اهتم جادامر منذ وقت مبكر بقضية التحليل التأويلي التفسيري ومشكلاته ولذا ركز كل جهده في عرض ومناقشة الأفكار حول التأويلية التي كان يعتبرها عملية خلاقية وليست عملية سلبية إذ أنها تقوم في قلب التقاليد والأعراف والعقائد وكل ميراث الضرد الذي يقوم بعملية التأويل حيث أن الهرمنوطيقا تهتم أساساً بشكل ومضمون موضوع التفسير سواء أكان فعلاً أو نصاً أو موقفاً اجتماعياً.

ويعتبر كتابه (الحقيقة والمنهج) Wahrheit and Methode الذي صدر في عام ١٩٦٠ (ترجم في ١٩٧٥ إلى الانجليزية تحت عنوان Truth and Method) من وجهة نظر كثير من النقاد والباحثين أهم كتاباته وإسهامه الرئيسي الذي سعى فيه إلى إبراز موقفه وأفكاره عن الهرمنوطيقا (نظرية التأويل / التفسير).

وهناك مسألة أساسية تظهر بوضوح عند جادامر فهو كفيلسوف هرمنوطيقي يرى أن هناك علاقة جذرية ومتداخلة في أي موقف من المواقف (النص) بين الكل والأجزاء التي يتكون منها هذا الكل ومن ثم فيصير من الصعب جداً فهم أو معرفة أي جانب دون معرفة الجوانب الأخرى.

وفى ضوء هذه المسئلة يسير جادامر فى كتاب «الحقيقة والمنهج» خطوة أبعد . فالهرمنوطقا تمثل عنده نسقا فكريا يضمن التوصل (فى رأيه) إلى الحقيقة . وهذا معناه أن الحقيقة تتلازم مع الوجود بوصفها جزءاً منه على ما ذهب إلىه الفينومينولوجيا الوجودية وهو الأمر الذى اعتبره غير صحيح تماما وأنه يمثل أحد الأخطاء الأساسية فى الفينومينولوجيا الوجودية التى تحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر . وعلى الرغم من أنه قد سعى إلى ذلك من خلال عملية جدلية طويلة فإن معالجه ظلت بعد ذلك معالجة ناقصة لأنها فشلت فى اعطاء تفسير مقنع للهرمنوطقا .

وبالرغم من ذلك فهناك بعض الأمور اللافتة التى قد تساعد فى إلقاء مزيد من الضوء على فكر جادامر أهمها ما يثار بصدد قضية الفهم ذاتها التى تعتبر قضية محورية فى تفكيره . فالفهم عنده ليس مجرد أمر ذاتى يتسم بالتلقائية أو الآلية والميكانيكية ولكنه ينطوى على مستويات عدة يتداخل فيها الماضى والحاضر بصفة دائمة وهو بهذه الطريقة يختلف تماما عن تفسير الوقائع التى تنتمى إلى عالم الطبيعة ذلك أنه يتطلب إقامة نوع من الحوار والنوص أو الولوج إلى الفعل ذاته أو النص للتعرف عليه من الداخل حتى لو كان ذلك لا يتم إلا عبر التتقل خلال الأزمنة المختلفة . وليس من شك فى أن الفهم على هذا النحو يمثل رحلة طويلة وشاقة وربما كان إدراكه لهذه الوضعية هو السبب فى القول بمفهومه عن عمومية الهرمنوطقا Universality of Hermeneutics الذى يعتبر بدوره مفهوما محوريا فى نظريته .

ولكن هذا المفهوم كان سببا فى قيام نقاش طويل وبصفة خاصة بينه وبين يورجن هابرماس Habermas نتج عنه إثارة العديد من القضايا التى طالما تحدث عنها فلاسفة التنوير التى كانت تتردد فى كل مناقشاتهم التى غالبا ما كانت تدور حول الأيديولوجيا . وعلى أية حال فقد كان ثمة خلاف فارق بين موقفيهما . فجادامر - من ناحية - يوحد الهرمنوطقا بكل انعكاسات التراث بكل ما يتضمنه من تقاليد ومثل وقيم وأخلاقيات .. إلخ . ولهذا فقد اعتبر هذا التراث بمثابة المنبع (المرجعية) الضرورى اللازم لكل فهم ومعرفة إنسانية . على حين - وهذا من الناحية الثانية - عارض هابرماس ذلك بشدة تأسيسا على اعتقاده بأنه يطرأ على التراث دائما الكثير من التغيرات والتحريفات والتشويهات التى لا يشك أحد فى أنها تباعد بينه وبين أن يكون مرشداً كافيا للفهم وللمعرفة . وهو خلاف لم يستطع جادامر أن يقطع فيه برأى على أية حال .

★ ★ ★

عالم الاجتماع الأمريكي هارولد جارفينكل هو مؤسس المنهجية الإثنية (المنهجية الجماعية) التي تعرف اصطلاحاً بالأنثوميثودولوجيا أحد أحدث المناهج (الطرائق) التي تلقى اليوم رواجاً كبيراً بين أجيال المفكرين الأمريكيين الشباب.

ولد جارفينكل في نيوجرسي في عام ١٩١٧ وتتملذ على أيدي نالكوت بارسونز Parsons الذي أفلح في أن يثير فيه اهتماماً زائداً بتحليل عالم الحياة اليومية وما يجري فيها من وسائل وأطر اتصالية ولهذا كانت دراسته لنيل درجة الدكتوراه التي حصل عليها عام ١٩٥٢ عن «إدراك الآخر» .

في عام ١٩٦٧ ظهر كتابه «دراسات في الأنثوميثودولوجيا - Studies in Ethnomethodology» الذي سعى فيه إلى توضيح المجال المعرفي الذي تهتم به الإثنية المنهجية. وهو كتاب استقبلته الدوائر العلمية والأكاديمية بترحاب شديد وإن عاب عليه البعض تفكك أسلوبه وغموضه في أماكن كثيرة ربما بسبب حدة الاتجاه نفسه كاتجاه يعكس منهجية جديدة في علم الاجتماع.

ولعل أول ملاحظة يمكن ملاحظتها في أعمال جارفينكل أنها تربط ربطاً قوياً بينه وبين الأفكار التي قال بها فيتجنشتين Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١) وأوستن (ح. ل. أوستن) Austin الذي يعتبر من ألمع علماء المدرسة التحليلية التي أطلق عليها مدرسة لغة الحياة اليومية أو مدرسة أكسفورد اللغوية (١٩١١ - ١٩٦٠) وعالم الاجتماع النمساوي الفريد شوتز Schutz (١٨٩٩ - ١٩٥٩) الذي يعتبر من أكبر ممثلي اتجاه الفينوميتولوجيا الوجودية. ويوجه عام تعنى الأنثوميثودولوجيا الدراسة التي توضح كيف يفهم الناس ما يقوله وما يفعله الآخرون أثناء عمليات التفاعل الاجتماعي اليومية كما تهتم بالمنهجيات الجماعية (الشعبية) التي يستخدمها البشر في عمليات التبادل الاتصالي ذات الدلالة التي تتم بينهم وبين بعضهم. وبمعنى آخر يمكن القول إن الأنثوميثودولوجيا تهدف أساساً إلى الكشف عن الأسس الاجتماعية للمعرفة الحياتية ومدى وكيفية استخدام كفاءتنا الاجتماعية حيث يبدو مفهوم الأنثوميثودولوجيا مفهوماً دالاً بذاته لذا يشير المقطع الأول (اثنو) إلى مخزون الفهم

أو المعرفة البديهية العامة المتاحة لأعضاء المجتمع بينما يشير المقطع الثانى (ميثودولوجى) إلى المناهج أو الاستراتيجيات التى يستخدمها الأفراد فى أطر مختلفة لكى يجعلوا من أفعالهم أفعالاً قابلة للفهم من قبل الآخرين. ولهذا فإن تحليل اللغة من الواضح أنه يمثل موقفاً مركزياً فى هذا الاتجاه.

ولقد ساعدت الظروف الاجتماعية السائدة فى نهايات الخمسينيات تقريباً من القرن الماضى على ظهور ومن ثم بلورة لا المفهوم فحسب ولكن الاتجاه بأكمله وذلك نتيجة بالدرجة الأولى لتراجع الوظيفية Functionalism كنظرية سائدة وموجهة لعلم الاجتماع الأمريكى وهى بوجه عام عبارة عن نوع من المزوجة بين بعض الاتجاهات الفلسفية كالفيثونولوجيا من ناحية وفلسفة فتجنشتين وفلسفة اللغة من ناحية ثانية.

وعلى أية حال فإن الاثنوميثودولوجيا تمثل جانباً هاماً من النقد الراديكالى لعلم الاجتماع التقليدى عن طريق سعيها المتصل لتوضيح المعانى وتجلية المفاهيم، والأطر التى تتحرك فيها الكلمات والألفاظ والخطابات بين الأفراد الفاعلين. وذلك على الرغم مما يشوب بعض مفاهيمها من غموض وبخاصة ما تعلق منها بفكرة الاشارية indexicality التى يقصد بها أن المعرفة تكتسب أحياناً بالإشارة إلى كلمات أخرى وإلى الأطر التى تنطق فيها الكلمات وفكرة الانعكاسية reflexivity التى تشير إلى أن أى فهم للفظ أو الموقف أو النص إنما هو نتاج لعملية تخاطبية أى أن الفهم إنما يتولد أو يتخلق من خلال التحديث ذاته وما قد يكون هناك من معانٍ ودلالات للفظ أو النص.

★ ★ ★

يقف عالم الانثربولوجيا الأمريكى كليفتورد جيرتزن فى مقدمة العلماء الذين اشتهروا بدراساتهم لقضايا الرمزية ومشكلات التغير الثقافى، والذين اسهمت بحوثهم اسهاما كبيرا فى ابراز أهمية البعد الثقافى فى التحليل الدينى والعقائدى حيث ركز بصفة خاصة على الملامح والأبعاد الثقافية فى الدين وصلتها بالبناء الاجتماعى والنفسى خاصة وهو يحاول العثور على إجابة شافية لتساؤل جوهرى مؤداه إلى أى مدى يكون اعتبار الدين نتاجا للبناء الاجتماعى وإلى أى حد يمكن أيضا الركون إلى صدق هذه المقولة.

ولقد ولد جيرتزن فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٢٦ وحصل على تعليمه فى كلية أنتيوش Antioch ونال درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد التى التحق بها خلال العام ٥٦ / ٥٧ ليصبح بعد ذلك زميلا فى مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية فى بالتو آلتو Paltto Alto (٥٨ / ٥٩) ثم استازا مساعدا للأنثربولوجيا فى جامعة كاليفورنيا (٥٨ / ٦٠) ليعود بعدها إلى جامعة شيكاغو عام ١٩٦٢ حيث أصبح استازا للأنثربولوجيا عام ١٩٦٤ ثم استازا بجامعة ميتشجان وبرينستون.

ومنذ البدايات الأولى لطريقه الأكاديمى تحددت نظريته إلى الدين باعتباره نسقا ثقافيا. ولكنه انطلق مع ذلك من اقتناع أساسى مؤداه أن حالة الدراسات والبحوث التى أجراها الأنثربولوجيون على الدين تشكو غير قليل من السطحية والضحالة الأمر الذى يصدق على ما تم منها طوال سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية أو تلك التى أجريت منذ اندلاعها. فكلها لم تضيف - فى رأيه - أية اضافات نظرية لها قيمتها وذلك لأنها فى الوقت الذى استلهمت كتابات مفكرين كبار مثل دوركايم وماكس فيبر وفرويد ومالينوفسكى لم يخطر ببالها أن ثمة علاقات متشعبة بالفلسفة والتاريخ والأدب والقانون وتجاهلت بذلك أحد الأبعاد بالغة الأهمية فى تحليل الدين وهو البعد الثقافى.

وينبثق عن هذا الموقف المبدئى قناعته المماثلة التى يكتمل بها موقفه النظرى والعلمى معا. ففى رأى جيرتزن أن استقصاء الدور الاجتماعى والسيكولوجى للدين

ليس مجرد محاولة لإيجاد الارتباطات بين بعض الأفعال الشعائرية وبعض الروابط الاجتماعية على الرغم من أهمية ذلك وأن هذه الارتباطات موجودة بالفعل، وإنما الأهم من هذا هو معرفة كيف أن التصورات تصيغ أفعال الإنسان وتكون ادراكهم لما هو معقول ولما هو عملي وتطبيقي وإنساني وأخلاقي، وبالتالي فإن السؤال الحيوي لا بد أن يكون عن تأثير هذه التصورات وهو سؤال يمثل في الحقيقة قضية هامة وخطيرة في علم الاجتماع المقارن وسيكولوجية الأديان.

وهناك خاصيتان أساسيتان يرى جيرتز أن الدراسة الأنثروبولوجية للدين لا بد أن تنتبه إليهما الأولى أهمية تحليل نسق المعاني الذي تتطوى عليه الرموز الدينية والثانية علاقة هذه الأنساق بيناءات العمليات الاجتماعية والسيكولوجية بالرغم من أن معظم الاهتمام المعاصر مازال ينصب على الناحية الثانية دون الاهتمام كثيرا بالناحية الأولى التي يرى أنها مازالت في حاجة إلى مزيد من الاهتمام والتعمق.

وعلى العموم فقد قام جيرتز بعدد من الدراسات الأثنوجرافية في كثير من البقاع منها اندونيسيا ومراكش وخاصة جاوة هذا بالإضافة إلى العديد من الدراسات والبحوث التي درت حول الأديان في هذه المناطق وبخاصة حول تفسير ما يوجد فيها من ثقافات ورموز وأساطير بخلاف عدد كبير من المقالات والكتب والمؤلفات التي قدمها بالاشتراك مع آخرين.

وعموما فإن من بين أهم مؤلفاته «الدين في جاوة» The Religion of Java (1960) و«مجتمعات قديمة ودول جديدة» Old Societies and New States (1962) و«تفسير الثقافات» The Interperation of Cultures (1973) و«الأسطورة والرمز والثقافة» Myth, Symbol and Culture (1974) و«مدخل (اقتراب) أنثروبولوجي لدراسة الدين An Anthropological Approach to the Stdy of Religion (1976).

★ ★ ★

ترجع شهرة عالم الاجتماع الألماني تيوردور يوليوس جايجر إلى أنه أول استاذ لعلم الاجتماع في الدانيمارك وإلى دراساته وبحوثه في التدرج والحراك الاجتماعيين وهي الدراسات والبحوث التي مارست تأثيراً متزايداً في معظم الباحثين الدانيماركيين وبخاصة على ما يظهر في دراسته للسكان في آرهوز Arhus بالدانيمارك والتي نشرت تحت عنوان «التغيرات الاجتماعية في مدينة دانيماركية متوسطة الحجم Social Changes in a Medium-Sized Danish City في عام ١٩٥١ وقبلما يموت بعام واحد أثناء قيامه برحلة بحرية وهو في طريق عودته إلى أوروبا بعد زيارة لمدة عام كأستاذ زائر في تورنتو.

ولد جايجر في ميونيخ عام ١٨٩١ وبعد أن انتهى من تأدية الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى عاد إلى ميونيخ حيث نال درجة الدكتوراة في القانون ليبدأ طريقه الذي كان مليئاً بالأشواق بسبب أفكاره التي ضمتها كتاباته ومؤلفاته التي كانت لفترة طويلة متأثرة بالفكر الماركسي الذي مكته على أية حال من الحصول على كرسى الأستاذية في معهد برونشفيك التكنولوجي من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٣. وإن كان قد هجر هذا الفكر على ما تبدى في مؤلفه الرئيسي «المجتمع الطبقي في بوتقة الانصهار» Class Society in the Melting Pot الذي ظهر في ١٩٤٨. ولكن بعد صعود النازيين إلى الحكم اضطر للهرب إلى كوبنهاجن حيث شغل عدة مناصب في مؤسسة روكفلر وفي معهد الدراسات التاريخية والاقتصادية وفي جامعة آرهوز. ثم هرب إلى ستوكهولم في ١٩٤٣ حيث عمل استاذاً لفلسفة القانون في مدرسة أوبسالا Uppsala حيث ركزت دراساته على فلسفة القانون والايديولوجيا والقانون. وعندما انتهت الحرب عاد إلى آرهوز في ١٩٤٥ حيث قام بتأسيس إدارة المعهد الاسكندنافي للبحث الاجتماعي.

وقد قام جايجر بنشر عدد كبير من الكتب والمؤلفات في علم اجتماع المجتمع كما ظهر اهتمامه بسوسيولوجيا النظام الاجتماعي فتشر «دراسات أولية في علم

الاجتماع القانونى» فى عام ١٩٤٧ ومن بعده نشر «الايديولوجيا والحقيقة» فى ١٩٥٣ ثم «الديموقراطية بلا عقائد جامدة» فى عام ١٩٦٠ وهو كتاب له أهمية خاصة إذ يبرز موقفه ورؤيته فى المجتمع ومدى تأثير الايديولوجيا عليه وإن كان قد اعتمد كثيرا على تجاربه الشخصية التى تكشف عن اتجاه غائى يصعب التقليل من أثره ونتائج.

★ ★ ★

لعل واحدا من علماء الاجتماع لا يختلف اليوم كثيرا فى أن عالم الاجتماع البريطانى أنتونى جيدنز يحتل - بالرغم من كل ما قد يوجه إليه من انتقادات - مكانة متقدمة بين أشهر علماء الاجتماع المعاصرين، وفى أنه يعتبر من وجهة نظر الكثيرين ربما أبعدهم تأثيرا لا فى بريطانيا وحدها ولكن فى مختلف أنحاء العالم. وأيضا فى أن هذه المكانة لا ترجع فحسب إلى الكم الهائل من الكتب والمؤلفات والدراسات والمقالات التى دأب على تأليفها ونشرها فى المجالات العلمية منذ سبعينيات القرن الماضى على الأقل وإنما ربما لأن أحدا لم يسهم فى تطوير النظرية الاجتماعية مثلما أسهم هو ليس فقط عن طريق محاولته إعادة قراءتها قراءة جديدة ولم شتاتها وإعادة بنائها ولكن لأن أحدا منذ فترة طويلة لم يسبق إلى تقديم نظرية تتسم بطرافة الفكر وبجدة المنهج مثلما فعل وتجاوز بذلك العديد من الأفكار والمقولات التى باتت منذ زمان طويل أشبه بالمسلمات أو المقدسات التى لا يصح مناقشتها أو حتى الاقتراب منها. فما بالك انتقادها وعلان إفلاسها وربما هدمها فى أحيان كثيرة.

ولقد ولد أنتونى جيدنز فى الثامن عشر من شهر يناير عام ١٩٢٨ فى بريطانيا وتلقى تعليمه أولا فى جامعة هل Hull التى درس فيها علم الاجتماع وعلم النفس ونال منها درجته العلمية الأولى (١٩٥٩) ثم انتقل منها إلى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية حيث حصل على درجة الماجستير فى علم الاجتماع (١٩٦١) ثم حصل بعد ذلك على درجة الدكتوراه من جامعة كمبريدج (١٩٧٦) حيث أصبح زميلا فى كلية الملك King's College ثم أستاذا للاجتماع بجامعة كمبريدج التى ظل يعمل بها حتى الآن كأستاذ ورئيس لمركز البحوث الاجتماعية بها.

هذا الإعداد الذى يتصف بتعدد التخصصات والاهتمامات وبتنوع الروافد الرئيسية التى نهل منها فى الثقافة والمجتمع قديما وحديثا جعل انتونى جيدنز يتمتع بتكوين علمى متميز كما نجم عنه أن جاء انتاجه ضخما وهائلا بكل المعايير لدرجة أن وصفه البعض بالموسوعية التى استثارتها حسه الاجتماعى الذى طالما قاد تفكيره

وخطواته سواء وهو يلتقط ويتخير موضوعاته وقضاياها أو عندما يشرع فى طرحها ومناقشتها. وقد قدم لنا أنتونى جيدنز حتى الآن حوالى ٤٠ كتابا فيما بينها على الأقل عشرة كتب رئيسية عكست فى مجموعها ما يطلق عليها سوسولوجيا أنتونى جيدنز ودار بعضها (وربما هى الأكثر أهمية) حول نظريته المعروفة باسم نظرية «الصياغة البنائية» أو «البنينة» كما يطلق عليها البعض Structuration Theory وإن كان قد كتب إلى جانب ذلك ما يزيد على مائتى مقال كثيرا ما يعود إلى بعضها ليستكمل موضوعا من الموضوعات أو نقطة من النقاط التى يتناولها فى كتبه ويكون قد عرض لها فى مقال سابق من مقالاته.

وقد يكون من الصعب حقا فهم سوسولوجيا جيدنز ومن باب أولى فهم نظريته والإحاطة بمنهجيتها ما لم نحط بمفهومه الذاتى لعلم الاجتماع طالما أن أحد الأهداف الرئيسية لنظريته هو إعادة الفهم السوسولوجى لمفهوم البناء Structure بدلا من أن يظل أسيرا لثنائية الذات / الموضوع التى طالما دارت من حولها النظريات والاتجاهات الأخرى والتى أصبحت بالنسبة إليه مجرد نظريات واتجاهات كلاسيكية ينبغى تجاوزها. فعلم الاجتماع عنده عبارة عن حوار مفاهيمى ممتد حول طبيعة المجتمع الحديث وهو حوار يفترض وجود الوعى بمستوياته وبدرجاته المختلفة وبأنواعه المختلفة أيضا سواء أكان وعيا عمليا أو وعيا ذاتيا وسواء أكان وعيا ناضجا ومكتملا أو فى مرحلة من مراحل نموه واكتماله أو حتى مجرد تعبير عن لا وعى ولا شعور. ومن الواضح أنه يصير ضروريا فى كل هذا الإحاطة أيضا بالعديد من المفاهيم وثيقة الصلة التى وإن كان بعضها قديما ومترددا فى تراث علم الاجتماع إلا أنه اكتسب أبعادا ومعانى أخرى وربما استخدامات أخرى كذلك فى نظريته مثل مفهوم تفكيك الصياغة البنائية Destructuration ومفهوم الصياغة البنائية Struc-turation نفسه الذى يقصد به كل عناصر الحياة الاجتماعية التى تجرى صياغتها من خلال الممارسات الاجتماعية التى تتم بشكل ماهر. ومن ثم تكون أشبه بالصياغة الأنطولوجية للحياة الاجتماعية بأكملها.

وبالنظر إلى هذا الفيض من الكتابات والمؤلفات لا يصح الاعتقاد بأن نظرية جيدنز قد عكسها واحد فحسب من هذه المؤلفات ولكن الأقرب إلى المنطق أن مراحلها وخطواتها قد تكاملت على امتداد بعضها التى استغرقت ولاشك عددا من

السنوات. وربما أمكن تحديد كتاباتها الأساسية من خلال الإشارة إلى عناوينها التي جاءت دالة على موضوعها إلى حد بعيد وهذه المؤلفات هي «الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة» وهو مؤلفه الأول الذي صدر في عام ١٩٧١. و«السياسة وعلم الاجتماع في فكر ماكس فيبر Weber ودور كايم Durkheim» الذي صدر في العام نفسه ثم كتابه الهام «قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع» (١٩٧٦) و«دراسات في النظرية السياسية والاجتماعية» (١٩٧٧) و«البناء الطبقي للمجتمعات المتقدمة» (١٩٧٩) وكذلك كتاب «مشكلات محورية في النظرية الاجتماعية: الفعل والبناء والتناقض في التحليل الاجتماعي» في العام نفسه. وإن كانت الثمانينيات قد حفلت أيضا ببعض الكتب الرائدة في مقدمتها «نقد معاصر للمادية التاريخية» (١٩٨١) وأعقبه كتابه المعنون «تكوين المجتمع: الخطوط العامة لنظرية الصياغة البنائية» (١٩٨٤). و«تأسيس المجتمع» (١٩٨٤) و«الدولة القومية والعنف» (١٩٨٥) و«مقدمة نقدية في علم الاجتماع» (١٩٨٩) ثم انفتحت التسعينيات بكتابه «منتجات الحداثة» (١٩٩٠) و«الحداثة والهوية الذاتية» (١٩٩١)، و«الطريق الثالث» (١٩٩٨)، و«عالم منفلت: كيف تشكل العولمة حياتنا» (١٩٩٩)، ثم آخر كتبه «علم الاجتماع» الذي صدرت طبعته الرابعة منذ خمس سنوات (٢٠٠١).

كتاب «الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة» Capitalism and Modern Social Theory من أهم الدراسات التي عرضت بالنقد والتحليل لأهم وأخطر النظريات التي كان لها تأثيرها في علم الاجتماع كالوظيفية والبنائية والماركسية وحتى الفرويدية والبارسونزية وما بعد البنائية والحداثيّة وما بعد الحداثيّة وكان بذلك أشبه بمراجعة نقدية للتراث يمكن القول بأنها مثلت ركيزة لانطلاقه نحو تأسيس نظريته الخاصة.

ويعتبر كتابه «السياسة وعلم الاجتماع في فكر ماكس فيبر ودور كايم» Politics and Sociology in the Thought of Max Weber and Durkheim امتدادا - بمعنى من المعاني - طبيعيا للكتاب السابق وإن كان قد ركز بصفة أساسية على ما تتسم به منهجية العلم من حالات انفصالية أو اغترابية بسبب جمود وضيق أطر التحليل الاجتماعي وعدم اتساق منطقتها.

أما كتابه الثالث الذى يبدو للكثيرين وكأنه أكثر أهمية من سابقه فهو كتاب «قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع» New Rules of Sociological Method فيدور موضوعه حول المنهج ويقدم صياغة جديدة لقضايا الفعل والبناء والتحول الاجتماعى كما يركز بصفة أساسية على طبيعة الفعل الاجتماعى وعلى دلالات تحليل الفعل بالنسبة لمنطق العلم الاجتماعى وهو كتاب من الواضح أنه يعيد إلى الأذهان كتاب دور كايم «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» Les Règles de la Méthode Sociologique (١٩٢٧) والتأثير الذى مارسه على الملايين من الطلاب والعلماء والباحثين. فإذا كان كتاب دور كايم قد سعى إلى تحقيق التماسك المنهجى فى ضوء ما ارتآه من شروط وحتى تتحقق للعلم ذاتيته فإن كتاب جيدنز يسعى بدوره - رغم تغاير الوضعيات والظروف - إلى تقديم منهجية تقضى على حالة التشرذم التى بات العلم يعانيها وذلك فى ضوء معالجته النقدية للاتجاهات الأساسية والمدارس الفكرية التى شغلت نفسها بتفسير الفعل الاجتماعى وفهم المجتمع والسلوك البشرى عموماً. فكانت نظريته فى الصياغة البنائية بما انطوت عليه من تصورات جديدة ومفاهيم جديدة ربما أحدثت الحركات المعاصرة التى تستهدف أساساً إعادة صياغة العلم وإعادة بنائه من جديد.

وليس من شك فى أن كتاب «نقد معاصر للمادية التاريخية» A Con-temporary Critique of Historical Materialism كان بدوره يهدف إلى الغاية ذاتها كتنقد يسعى إلى إعادة صياغة النظرية الاجتماعية فى ضوء القراءة الجديدة لأفكار العلماء والكتاب السابقين وهى الغاية التى لم يجد عنها فى أى من كتبه ومقالاته. وهو ما ظهر كأوضح ما يكون فى كتابه الهام «مشكلات محورية فى النظرية الاجتماعية» Central Problems in Social Theory : Action, Structure and Contradiction in Social Theory . وهو كتاب يعتبر تطويراً للأفكار التى سبق أن تناولها فى كتابه قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع ومحاولة للرد على الذين انتقدوا هذا الكتاب فى بعض ما ذهب إليه مما ألقى بضوء جديد على كتاب القواعد يجعله أشد تماسكاً واقناعاً بما يعكسه من نظرة نقدية تحليلية ثاقبة.

إن ما لا شك فيه هو أن انتونى جيدنز قد نجح فى أن يصيب العلم بهزة عنيفة كانت ضرورية كيما يستطيع مواصلة طريقه نحو فهم أعمق للمجتمع وللإنسان وما

كان هذا ليتحقق إلا بالمعالجة النقدية الواعية وإلا عن طريق ابتكار ونجت العديد من التصورات والمفاهيم الجديدة لفهم عملية انتاج وإعادة انتاج المجتمع التي وإن بدت - حتى الآن - غريبة على كثير من الأذان إلا أنها سوف تلعب الدور نفسه الذي سبق لكتاب دور كايم الذي أشرت إليه أن قام به وبذا تتراكم المعرفة وفي الوقت نفسه يتجدد العلم كطريق لا طريق غيره نحو مزيد من الفهم والتقدم.

★ ★ ★

يعتبر عالم الانثروبولوجيا الأمريكي إدوارد جيفورد أحد كبار علماء آثار ما قبل التاريخ المشهود لهم وواحدًا من أهم الذين درسوا اثولوجرافية الثقافات الهندية في الغرب الأمريكي في كاليفورنيا وأسهموا إسهاما ضخما في تطوير المتحف الأنثروبولوجي التابع لجامعة كاليفورنيا وجامعة بيركلي Berkely بكثير من المجموعات. خاصة وأنه عمل أستاذا في كاليفورنيا كوليغ منذ عام ١٩٢٠ حيث أصبح استاذا للانثروبولوجيا في عام ١٩٥٤ وذلك بعد رحلة علمية وعملية طويلة شارك خلالها في العديد من البعثات كما أصبح نائبا مساعدا لمدير أكاديمية كاليفورنيا للعلوم من عام ١٩٠٤ إلى ١٩١٢ ثم لفترة طويلة من ١٩١٢ إلى ١٩٥٦ رئيسا عن جدارة لإدارة المتحف الذي ارتبط به لفترة بلغت حوالي ٤٤ عاما كاملة.

والمواقع أن المادة الاثولوجرافية الهائلة التي جمعها عن الهنود الأصليين أمدته بالدقائق والتفاصيل الدقيقة بشكل قل أن يوجد له مثيل لدرجة أن عمليتين اثنتين على الأقل من أعماله مازالت تعتبر إلى اليوم من المراجع الأساسية في هذا الميدان وهذان الكتابان هما كتاب «مصطلحات أنساق القرابة في كاليفورنيا» (١٩٢٢) والكتاب الثاني عن الخصائص الطبيعية باسم California Anthropometry (١٩٢٦) والشئ نفسه بالنسبة لرحلته العلمية التي قام بها إلى جزر تونجا في عام ١٩٢١ وكتب عنها «مجتمع التونجا» Tonga Society (١٩٢٩).

ويشكل تصنيفه وترتيبه للمادة التي كان يجمعها بنفسه وبواسطة غيره من الباحثين والتي تحتوى في الأغلب على كم ضخم من المعلومات التفصيلية الخاصة بثقافتهم إنجازا أرشيفيا رائعا يحاول مثله الكثيرون من المتحفيين. وإن كان جانبًا من الفضل في تطوير مفهوم البدنة Lineage الذي يعتبر أحد المفهومات الرئيسية في الانثروبولوجيا الحديثة يرجع إليه. فقد اهتم بقضية الانتماء إلى البدنة والدور الذي تلعبه في المجتمعات الزراعية والمجتمعات الرعوية على وجه الخصوص الأمر الذي يتطلب درجة عالية من تعاون عدد كبير من الأفراد الذين تربط القرابة بينهم في مختلف الأعمال والنشاطات.

وفي وقت متأخر اهتم جيفورد بدراسة آثار ما قبل التاريخ وأضاف بذلك الكثير إلى التراث الخاص بجماعات شمال غرب المكسيك مما قاده إلى بعض التنقيبات في كاليفورنيا الجديدة New Caledonia وفيجي Figi وياب Yap وهو ما أتاح له الفرصة لكتابة مؤلفه «آثار وتنقيبات ما قبل التاريخ في فيجي» (١٩٥١) وكذلك مشاركته لعالم الانثربولوجيا كروبر Kroeber في كتاب (World Renewal) الذي صدر في ١٩٤٩ ولقى رواجاً منقطع النظير.

★ ★ ★

على الرغم من أن الاتجاه الغالب لدى كثير من العلماء أنهم لم يعودوا يهتمون كثيرا بقضية التقدم الأخلاقي، وصياغة نظرية أخلاقية، فإن عالم الاجتماع البريطاني الجنسية موريس جينزبرج يعتبر إلى حد بعيد استثناء ملحوظا من ذلك. فقد مضى جينزبرج في أماكن عديدة من كتاباته المتقدمة والمتأخرة ينتقد علماء الاجتماع الذين افترضوا وجود ارتباط ضمني بين التباينات في القوانين الأخلاقية وبين النسبية الأخلاقية، وكذلك الفلاسفة الذين نظروا إلى الأحكام الأخلاقية على أنها شيء واقعي ومن ثم فهي ليست صادقة أو كاذبة، ومن هنا فقد أخذ يركز في دراساته على بحث وتحليل التباير الأخلاقي في ضوء التغيرات في الشعور والتغيرات بين الأفكار الأخلاقية المجردة وتلك التي توجد في واقع الحياة وفي قلب مجتمع بعينه.

ولقد ساق الأستاذ جينزبرج منظورا نقديا لمفهوم التطور Evolution في علم الاجتماع، وهو مفهوم لا يتعلق بقضية التطور في ذاتها فحسب، ولكن أيضا بالمسألة الأخلاقية بعامة وبخاصة قضية التقدم الأخلاقي في ارتباطها بالسياسة. وهي قضية وثن كانت قد شاركه في حمل همومها هو بهاموس Hobehouse وحتى وستر مارك Westermark ، إلا أنه نجح في بلورة موقفه الخاص الذي وصفه بوتومور بأنه ألقى بكثير من الضوء على المدخل التطوري نفسه وعلى طبيعة العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الأخرى وكان حريا بكل هذا أن يكون له أثره في الفكر السوسيولوجي الغربي.

وهناك ثلاثة محاور رئيسية تبلورت من حولها مواقف جينزبرج النظرية والمنهجية. وأول هذه المحاور وهو في الوقت نفسه أكثرها أهمية دراساته لأنماط الجماعات الاجتماعية وهو اهتمام برز لديه في وقت مبكر نسبيا. أما المحور الثاني الذي لا يقل أهمية، فيتمثل في فهمه الخاص لمفهوم الطبقة الاجتماعية ومفهوم الوعي الطبقي، وبالتالي كيفية تكوينها والمؤثرات التي تؤثر في تشكيلها. ومن الناحية الثالثة قضية التغير الاجتماعي والثقافي وهي قضية لا تنفصل عن تأكيده المستمر على ما للفلسفة والميتافيزيقا من أهمية، الأمر الذي يختلف كثيرا عما نجده

لدى بعض كبار الفلاسفة والمفكرين من أمثال أوجيست كونت Comte وحتى إميل دور كايم Durkheim نفسه. وأخيرا اهتمامه بأنماط وأشكال التعميمات التي يطرحها العلم وقضية القانون العلمي في العلم الاجتماعي.

في عام ١٩١٥ ظهرت الطبعة الأولى من كتاب جينزبرج «الثقافة المادية والنظم الاجتماعية لدى الشعوب البسيطة» The Material Culture and Social Institutions of Simpler Societies. وفي هذا الكتاب الذي أعيدت طباعته أكثر من مرة ونشرت له طبعة منقحة في عام ١٩٣٠ ارتاد جينزبرج بالاشتراك مع هوبهاوس وهويلر Wheeler طبيعة العلاقات المتشابكة بين أشكال المجتمعات المختلفة وبين أنساق التكنولوجيا وآلياتها.

وعلى الرغم من أن جينزبرج قد لجأ في هذا الكتاب إلى استخدام المنهج المقارن الذي استطاع توظيفه بنجاح فإن دراسته للمجتمعات البسيطة لم تستطع مع ذلك أن تقدم تفسيراً كافياً لطبيعة هذه العلاقات وإن كانت قد أوضحت الكثير من جوانب العلاقة بين التغيرات الاجتماعية وبين أشكال السلطة السياسية المستقرة وهي ناحية تفتقر إليها مثل هذه المجتمعات.

ولقد لعب مفهوم الطبقة Class والطبقة Class Consciousness دوراً هاماً في فكر موريس جينزبرج، حيث ارتبطا بتصوره لنشاط المجتمعات والجماعات الإنسانية وما يطرأ عليها من مظاهر التطور أو حتى التغيير. وربما كان كتابه «سيكولوجية المجتمع» The Psychology of Society الذي قدمه في عام ١٩٢١ أفضل ما يضعنا على تصوراته الأساسية بهذا الصدد حيث تناول العادات الاجتماعية والأعراف والرأى العام، كما انتقد نظرية باريتو Pareto في الرواسب أو البواقي الثقافية Residues وقدم بدلاً من ذلك تحليلاً دقيقاً لدور العقل والدوافع في السلوك الاجتماعي.

وربما كان من أبرز المواقف التي تضمنها هذا الكتاب مهاجمته فكرة العقلية البدائية التي يقول أصحابها بأنها عقلية غير منطقية فهو يرى أن الاختلاف الرئيسي بين العقلية البدائية والعقلية المتحضرة هو في نسبة مجال ما هو طبيعي إلى ما هو فوق طبيعي وبذلك فإن العقلية البدائية هي عقلية منطقية لأنها تستخدم أيضاً مبدأ العلية ولكن بغير المعنى الذي نجده عند الإنسان المعاصر.

فى عام ١٩٣٢ ظهر كتابه «دراسات فى علم الاجتماع» Studies in Sociology. ثم بعد ذلك كتابه «علم الاجتماع» Sociology (١٩٣٤) ومن بعدهما كتابه الهام «العقل واللاعقل فى علم الاجتماع» Reason and Unreason in Sociology (١٩٤٧) وفى كل هذه الكتابات ضمن جينزبرج فيضا من المعلومات النظرية والواقعية لتجنى جهدا أكاديميا لا غنى لدارس علم الاجتماع عن الوقوف عليها.

ومع أن البعض يرى انطباع هذه الكتب جميعها بطابع سيكولوجى وهذا صحيح إلى حد بعيد إلا أن الأمر كان أشبه بالضرورة الموضوعية مع ذلك بحكم نوعية القضايا التى تثيرها. وإذا كان قد برز لديه فهم خاص للميتافيزيقا يختلف كثيرا عن فهم أوجيست كونت الذى ذهب إلى أنها مرحلة سابقة على التفكير الوضعى فقد أبرز جينزبرج حقيقة أن فهم كونت لطبيعة المنهج الوضعى إنما يركز على تميزات ميتافيزيقية لم يخضعها للتحقيق والاختبار ذاهبا فى ذلك إلى أن وضعية كونت لم تفعل أكثر من أنها قد اصطنعت منهج العلم رغم كل الادعاءات بما هو عكس ذلك.



ولد جلوكمان فى يناير عام ١٩٠٠ فى جوهانسبرج Johannesburg فى جنوب أفريقيا وهو عالم أنثروبولوجى يتميز باسهاماته الضخمة فى الأنثروبولوجيا السياسية على وجه الخصوص وخاصة تحليله للنظم السياسية للقبائل الأفريقية. وكذلك دراساته للصراع وللمنازعات وعداوات الدم إذ اهتم اهتماما كبيرا بابرار علاقاتها بالتغير الثقافى على نحو ما نجده بصفة خاصة فى كتابه الشهير «العرف والصراع فى أفريقيا» Custom and Conflict in Africa الذى صدر فى ١٩٥٥.

والواقع أن جلوكمان تعتبر من أوائل الذين أكدوا على أهمية دور الصراع فى المجتمعات البدائية ولكنه حاول فى هذا إبراز الجوانب الوظيفية فى الصراع باعتباره ليس دائما عامل هدم كما يمتد الكثيرون. وقد كان من الطبيعى أن يهتم - إلى جانب هذا - بالتعرف على طبيعة القانون البدائى والطرق التى تلجأ إليها الجماعة البسيطة لحل منازعاتها كالتعويض أو القيام ببعض الخدمات ... إلخ. مما يعنى أنه هدف فى النهاية إلى الوقوف على الدور الذى يلعبه هذا القانون فى تنظيم المجتمع نفسه والحفاظ على استقراره. فالقانون فى رأيه يعنى مجموعة القواعد المقبولة من أعضاء المجتمع الأسوياء باعتبار أنها التى ترسم طرق السلوك الصحيح الذى يتعين على الأفراد الالتزام بها فى صلاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض وبكل ما يوجد فى المجتمع من أشياء وهو تعريف بسيط أقرب إلى طبيعة البحث الأنثروبولوجى الذى يعنى على وجه الخصوص بقوانين المجتمعات البدائية والقبلية والبسيطة التى لم يتعد تركيبها وبنائها السياسى بعد ومن ثم فقد سعى إلى إبراز دور المحكمين البدائيين وميلهم إلى المصالحة بين الأفراد لمنع الصراع من الانتشار إلى باقى الأعضاء الأمر الذى ترتب عليه أن يلقى الضوء على علاقة الصراع بالتفاوت فى التطور والنمو التكنولوجى الذى كان يحتم البحث عن وسائل أخرى لتحقيق الضبط والنظام معا.

ولقد تنقل جلوكمان فى العديد من المناصب التى هيات له امكانات القيام بدراساته العقلية. فبعد أن نال درجة الدكتوراه فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية من اكسفورد عمل باحثا فى معهد ليفنجستون رودس للدراسات الاجتماعية فى أفريقيا

الوسطى البريطانية (روديسيا الشمالية) حيث أجرى العديد من الدراسات في بارتسولاند ما بين عامي ٣٩ و ١٩٤١ وقام ببعض البحوث على قبائل التونجا Tonge (١٩٤٤) وأيضا شعب اللامبا Lamba (١٩٤٦) ثم حاضر في أكسفورد (٤٧ / ٤٩) ليصبح من عام ١٩٤٩ أستاذا للأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة مانشستر. هذا بالإضافة إلى بحوثه ودراساته في الهند وبريطانيا وبخاصة في مجال علم الاجتماع الصناعي.

ويمكن الوقوف على اطار تفكيره الواسع من خلال عناوين كتبه ومؤلفاته حيث كتب «شعائر التمرد (الانعزال) في جنوب شرق أفريقيا Rituals of Reblion in South - East Africa و«السياسة والقانون والشعائر في المجتمع القبلي» Politics, Law and Ritual in Tribal Society (١٩٦٥)، و«الأفكار في نظام باروتسو القانوني» The Ideas in Barotse Jurisprudence (١٩٦٥) كما أشرف على تحرير وإعداد The Allocation of Responsibility في ١٩٧٢ . أي قبل وفاته بثلاثة أعوام.

★ - ★ ★

نجحنا معا وتمكنا من تحقيق مكانة رفيعة كعلمين من علماء الاجتماع وكبار المتخصصين في علم الاجرام Criminology اللذين كانت لدراساتهما عن السلوك الاجرامى وعن آثار ونتائج المعاملة الاصلاحية أعمق الأثر فى تطوير نظم العدالة الجنائية Criminal Justice سواء من الناحية التشريعية أو من الناحية الأدائية والادارية.

هما العالمان شلدون جيلوك وزوجته اليانور من أصل بولندى ولكنهما عاشا فى الولايات المتحدة الأمريكية التى قدم هو إليها فى ١٩٠٣ ليصبح مواطنا أمريكيا فى ١٩٢٠ وبعدها تزوجا فى ١٩٢٢ وظل زواجهما قائما حتى توفيت هى فى ١٩٧٢ ثم توفى هو بعدها بسنوات فى ١٩٨٠ . ولقد تلقى شيلدون جيلوك تعليمه فى جامعة جورج تاون وفى الجامعة الوطنية للقانون ثم فى جامعة هارفارد التى نال منها درجة الماجستير ودرجة الدكتوراه وتولى مهام التدريس بها من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٦٣ حيث تقاعد وأصبح أستاذا متفرغا من هذا التاريخ. أما زوجته فكان اسمها قبل الزواج اليانور توروف Touroff وقد ولدت فى بروكلين بأمريكا وتلقت تعليمها فى برنارد كوليغ وفى مدرسة الخدمة الاجتماعية بنيويورك ثم فى جامعة هارفارد التى عملت فيها باحثة فى علم الاجرام من عام ١٩٢٥ حتى وفاتها فى عام ١٩٧٢ .

ولمدة تزيد على أربعين عاما ارتادا معا سيرة حياة المئات من المجرمين والجانحين واشتركا معا فى العديد من المؤلفات والمقالات والدراسات التى يمكن القول بأنها قد توجت بالعمل الرئيسى الذى ترجع إليه شهرتهما وهى «جداول التنبؤ الاجتماعى» Glueck's Social Prediction Tables التى وضعا تصميمها وطرائق تطبيقها واستخدامها والتى توصلا إليها من دراساتها وبحوثهما فى السلوك الاجرامى والانحرافى التى حاولا فيها تحديد خصائص الجانحين ومن يحتمل جناحهم فى ضوء العديد من الحالات التى كانت من الأطفال فى سن السادسة واحدة من أهم هذه الدراسات التى اعتمدا فيها على المناهج التتبعية للأفراد والجماعات بفرض رؤية الآثار الناجمة على مدى الفترات الزمنية المختلفة للتعرف على اتجاهات السلوك الانحرافى بعرض عام ومحاولة التنبؤ باحتمالات السلوك الجانح فى ضوء ما يتوافر من معلومات مؤلفهما تحت عنوان «جناح الأحداث

اللاتجوالى» Unroveling Jevenile Delinquency (١٩٥٠) الذى قارنا فيه بين ٥٠٠ حالة جانحة و ٥٠٠ حالة أخرى من غير الجانحين وهى عينة راعى فيها أن تكون متجانسة فى السن والذكاء والأصل وانتهى إلى قصور العوامل السيكولوجية وحدها فى تفسير الاختلافات بين المجموعتين حيث برزت فى مقابل هذا أهمية وخطورة الدور الذى تقوم به ثقافة الجناح Delinquent Culture المتفشية فى المنطقة محل الدراسة.

ومع أن شلدون جيلوك قد كتب دراسة خاصة عن روسكو باوند تحت عنوان «روسكو باوند والعدالة الجنائية» Rosco Pound and Criminal Justice (١٩٦٤) إلا أنه عاد ثانية إلى قضية الجناح فصدر لهما مؤلفهما «البنية والجناح» Physique and Delinquency (١٩٦٥) الذى اشتمل على تحليل للعلاقات بين أنماط الجسم وبعض سمات الشخصية والعوامل الاجتماعية والثقافية بهدف تحديد أى سمات الشخصية والعوامل الاجتماعية هى التى تباشر تأثيرا فارقا له دلالتة الاحصائية على الجناح فى مختلف الأنماط الجسمية. وانتهيا إلى أن النمط المتوسط التركيب (ميزوفورميك) لديه قابلية عالية للجناح تفوق أى نمط جسمى آخر إذ ترتبط به ميول الهدمية والسادية وكذلك انعدام التوازن الانفعالى أكثر من ارتباطها بجناح أصحاب النمط الخارجى التركيب (الأكتومورفيك).

كذلك ظهر لهما فى عام ١٩٦٨ مؤلفهما Delinquents and Nondelinquents in Prespective عبارة عن دراسة تتبعية على مدى ١٥ عاما اشتملت على بعض دراساتهم المبكرة. وما أن فرغا من هذا المؤلف حتى انشغلا فى عملهما الأخير المشترك الذى ظهر تحت عنوان «نحو تمييز للأحداث المذنبين: تضمينات لعلاج وقائى» Toward a Typology of Jevenile Offenders: Implications for Therapy Prevention (١٩٧٠). حيث أكدوا فى هذا الكتاب على أن فكرة المناطق المتخلفة SlumAreas أو ما يطلق عليه المناطق الانتقالية لا يمكن أن تقسر بمفردها ظاهرة الانحراف.

★ ★ ★

عالم الاجتماع الكندي الأصل إيرفينج جوفمان من أكثر علماء الاجتماع تأثيراً في دراسات سوسولوجيا الجماعات الصغيرة على الأقل في الفترة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. فقد انبنت شهرته الواسعة بسبب تحليله للقواعد الاجتماعية التي لا تتصف بصفة المباشرة ولكنها كامنة وتتحكم مع ذلك في مختلف صور التفاعل غير اللفظي ولذا فهو يعتبر من أكبر المشايخين لنظرية التفاعل الرمزي وواحداً من أكبر أتباع مدرسة شيكاغو في التفاعلية الرمزية إذ تتلمذ على أيدي هربرت بلومر Blumer الذي كان يعتبر من أقطابها المرموقين.

ولد إيرفينج جوفمان في مانفيل Mannville في ألبرتا Alberta بكندا في ١١ يونيو عام ١٩٢٢ وتعلم في جامعة تورنتو حيث تخصص في العلم الاجتماعي وحصل على درجة الماجستير (١٩٤٩) ثم الدكتوراه في علم الاجتماع (١٩٥٣) من جامعة شيكاغو وقام بتدريس علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٨٢ (عام وفاته) في جامعة ادنبرة التي انتقل منها إلى جامعة كلي ثم إلى جامعة بنسلفانيا.

ومنذ البداية اتسم تفكير جوفمان بالاصالة والعمق فقد قرأ دور كايم وجورج زيمل واهتم اهتماماً كبيراً بكتابات مختلف الاتجاهات التصويرية على وجه الخصوص وبخاصة في نزعتها إلى التعميمات لدرجة أنه كان يسقط من حسابه كثيراً من التفاصيل التي قد يضيع في ثناياها جوهر ما يهدف إليه ويريد أن يقوله خاصة وأن كل كتاباته كانت تدور حول العلاقات الاجتماعية ومظاهر السلوك البشري بجوانبها الظاهرة والمضمرة ولكنها بالذات ما اعتبره تركيباً صادقاً للواقع الاجتماعي.

ولقد سعى جوفمان إلى بلورة نظريته الخاصة في مظاهر السلوك البشري في عدد من مؤلفاته لعل أهمها كتابه «تقديم الذات في الحياة اليومية» - The Presentation of Self in Every day Life الذي صدر في ١٩٦٥. ففي هذا الكتاب الذي يعتبر أشهر كتبه عرض نظريته في التفاعل الاجتماعي والفكرة المحورية عنده أننا نقدم أنفسنا إلى الآخرين في صور مختلفة ومن خلال أقنعة تختلف باختلاف المواقف التي نجد أنفسنا طرفاً أو مخرطين فيها، كاشفاً بذلك عن أن كل ما يصدر

عن الإنسان من إيماءات وإشارات تلقائية وغير مقصودة ومن بينها حتى حركة العينين أو وضع الجسم وحركاته وما إلى ذلك من مظاهر السلوك إنما لها وضعية ذات معنى وتأثير إيجابي في العملية الاتصالية إذ تتحدد في ضوئها الكثير من ردود الأفعال من قبل الآخرين. وهي ما يتفق مع نظرتة إلى الحياة ذاتها التي نظر إليها على أنها مسرح كبير مليئ بالمواقف التي يقوم فيها الأشخاص بدور الممثلين الذين يسعون إلى التأثير أو على الأقل ترك انطباعات معينة في المشاهدين. وكذلك الحال بالنسبة إلى كل منا في سعينا المتواصل إلي أن تؤثر صورتنا عن ذواتنا في الآخرين أطراف التفاعل والمشاركين في المواقف على نحو أو آخر.

والكتاب الهام الثاني أصدره جوفمان في ١٩٦٩ تحت عنوان Where the Action Is? واهتم فيه اهتماما خاصا ببناء المواقف الاجتماعية والقواعد التي تحكم هذه البناءات أكثر من اهتمامه بالمحتوى الذي اعتقد أنه كثيرا ما يتغير ويتلون بتغير القواعد ذاتها وبالتالي تأثيرها في بناء المواقف الاجتماعية ومضامينها. كما صدر له كتابان آخران على غاية من الأهمية أحدهما ظهر في أواخر حياته (١٩٧٤) بعنوان «التحليل الاطارى: مقال في تنظيم الخبرة» Frame Analysis: An Essay on the Organization of Experience. 1974 واهتم فيه بدراسة عمليات الاتصال غير اللفظي. على حين يعتبر الكتاب الهام الثاني آخر كتبه إذ صدر قبل وفاته بثلاثة أعوام بعنوان: Gender Advertisment ويدور حول دراسة متعمقة لخصائص بعض الصور واللوحات والبورتريهات التي تتطوى صراحة وضمنا على أهداف دعائية وإعلامية ترتكز على ما تكرر دائما وتروج له من قيم تستهدف التأثير في مشاعر المستهلكين وبالكاد في الطبقة السطحية الرقيقة من وعيهم.

★ ★ ★

من أهم الذين جمعوا بين البعدين السياسى والاجتماعى فى كتاباته العلمية والأدبية. ولذا فمن الصعب حقيقة فهم لوسيان جولدمان فهما جيداً وفهم مساجلاته ومواقفه الفكرية بعيداً عن هذين البعدين وعلى وجه الخصوص بعيداً عن تراث واسهامات وتقائيد مدرسة فرانكفورت وذلك لأن كل النقاش الدائر من حول قضية علم اجتماع المعرفة والأدب والعلم والثقافة عموماً وكلها موضع اهتمام جولدمان الأصيل لا يمكن الاحاطة به واستيعابه بصورة واضحة إلا من خلال أعمال ما نهايم ولوكاتش التى مارست عليه تأثيراً متزايداً وبخاصة فى نظريته الجمالية وعلم اجتماع الأدب التى أقامها على علم اجتماع المعرفة وإن كان من المهم القول مع ذلك أن أعمال كاتب مثل جولدمان ستظل بسبب ارتباطها وقربها الشديدين بماكس فيبر تدفع بالحياة لوقت طويل فى التقليد الماركسى الراسخ فى علم الاجتماع.

ولقد ولد الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى لوسيان جولدمان فى عام ١٩١٣ ولكن شهرته تجاوزت الحدود الحضارية والاقليمية لوطنه فاكتسب شهرة عالمية جعلت منه أحد كبار المفكرين المعاصرين فهو واحد من كبار النقاد الفرنسيين المعاصرين الذين انبنت شهرتهم على موقفه الخاص من العلاقات الجدلية بين التيارات الثقافية والاجتماعية والبناءات اللغوية وهى علاقة يمكن تحليلها وإن كان وجه الخطورة يكمن فى أنه وإن كنا لا ننكر ما ذهب إليه علماء كبار مثل ياكوبسون Jakobson، وكارشفسكى Karcevsky، وتروبتسوى Troubetzkoy من وجود هذه العلاقة الجدلية فقد تجاوز جولدمان الارتباطات اللغوية البنائية فلم يقم تصوره على منهج تاريخى اجتماعى يقوم على التصور المادى الجدلى للتاريخ وإنما تطرف فى ذلك إلى حد أنه اعتبر أى إنتاج ثقافى لا يرتبط بالتصور الماركسى للتاريخ مجرد وهم ولفو وهراء ومنتخذاً بذلك موقفاً حاسماً من العلم الوضعى Positive Science الذى انتقده بمنزلة الأمر الذى يمثل فى الحقيقة بؤرة اهتمام أساسية فى تحليله لعلم اجتماع المعرفة ويكشف فى الوقت نفسه عن وجه الالتقاء بينه وبين أقطاب مدرسة فرانكفورت وهو التفسير الماركسى الذى يناهض النزعة العلمية ليسار التقليدى

القديم وكذلك الراديكالية الزائدة في اليسار الجديد أيا كانت المسميات التي تتخذها الإنسانية أو المثالية أو كلاهما .

والواقع أن هناك منطلقات أساسية وحاكمة في تفكير جولدمان فهو يذهب - بداية - إلى أن علم الاجتماع وبخاصة في أشكاله اللاماركسية، قد أصبح علما خادما للمصالح الرأسمالية تظهر توجهاته الأساسية في دعمه أهداف التكنولوجيا حتى أصبح يوجه معظم اهتمامه إلى المشكلات الصغيرة والبحث عن حلول مؤقتة لها أكثر منه الاهتمام بالقضايا الأكثر أهمية المتعلقة بالتطور التاريخي.

ويؤكد جولدمان موقفه هذا ذاهبا إلى أن علم الاجتماع الأمريكى على وجه الخصوص قد انغمس في مرحلة من مراحل - وما زال - في محاولة شرح وتفسير وسائل التكيف والتوافق الاجتماعيين مع التقدم الآلى والتكنولوجى وما ينشأ عن هذا التقدم من مشكلات صار المجتمع الرأسمالى ممثلا بها . أما ما يعنيه جولدمان بذلك فهو إن البحث قد فقد أهم دوافعه وهو البحث في التغييرات الكيفية التي تطرأ على البناءات الاجتماعية وأيضا الأبعاد التاريخية للحقائق الاجتماعية وهذا ما عبر عنه في كتابه المعنون «العلوم الإنسانية والفلسفة» *The Human Sciences and Philosophy* (١٩٦٩) والذي نشر لأول مرة في عام ١٩٥١ .

ولكن جولدمان سعى إلى تطوير هذه القضية السابقة إلى ما هو أبعد من ذلك فحاول إلقاء الضوء على هذا الاهتمام (الميثودولوجى) الأمر الذي لا يرجع فحسب إلى اخضاع علم الاجتماع للمصالح الرأسمالية وإنما نتيجة أيضا لما يوجد من غموض وخلط في القيم العلمية وفي العلاقة بين الحقائق الاجتماعية والحقائق الطبيعية والمحاولات التي تهدف إلى جعل علم الاجتماع تابعا لمناهج العلوم الطبيعية والكيميائية عموما . وفي هذا فإنه يخلص إلى نتيجة هامة مؤداها أن محاولة جعل علم الاجتماع علما يتصف بالعلمية إنما هي محاولة لمنه من أن يرى المجتمع ككل أو كسياق اجتماعى مفتوح للتغير وفعل التغير . ويلقى مسئولية مباشرة على علم اجتماع المعرفة لأنه باعتباره أساسا للنقد مسئول مسئولية ضخمة عن هذه الوضعية طالما أنه موجه إلى تحليل الأسس القائمة للمناهج الاجتماعية ومن ثم فإن علم اجتماع المعرفة أن يعمل جاهدا على قيام علم اجتماعى تاريخى يقف فى مقابل علم الاجتماع السائد حاليا .

ولا يزال الجدل دائرا حول أعمال لوسيان جولدمان وكتاباتة التي عبر بها عن مواقفها المتعلقة بعلم اجتماع الأدب ونظريته الجمالية على وجه الخصوص وهذه ناحية استأثرت بجانب كبير من اهتماماته ويصعب التغافل عنها إذا ما أريد فهم جولدمان وفلسفته فهما سليما متكاملتا خاصة وجولدمان له موقف محدد من النص الأدبي يتضمن معانى اجتماعية أو ما يعرف عموما بالمحتوى الاجتماعى للكتابة.

ولا ترجع مواقف جولدمان فقط إلى تلك الأفكار التي تبناها عن ماركس وما حواه فكره من تصورات وإنما إلى إحاطته الواسعة بالانتاج الفكرى والفلسفى على مدى العصور السابقة التي مر بها الفكر الغربى عموما وبخاصة التراث الأدبى عن عصر التنوير رغم ضخامته وغزارته وهو ما انعكس فى كتاباته فى مختلف مراحل تطوره الفكرى. ففى عام ١٩٤٨ صدر كتابه المعنون «الجماعة الإنسانية والكون عند كانط» *La Communauté Humaine et l'Univers chez Kant* ثم دراسته عن المسرح والتراجيديا فى فكر باسكال التي ظهرت تحت عنوان طويل نسبيا هو *Le Dieu Caché: Etude Sur la Vision Tragique dans les Pensées de Pascal et dans le Théâtre de Racine* (١٩٥٥) ومن بعده كتابه عن «فلسفة عصر التنوير» *The Philosophy of the Enlightenment* (١٩٧٣) ومن قبله كتابه «الابداع الثقافى فى المجتمع الحديث» *La Création Culturelle dans la Société Moderne* الذى صدر عام ١٩٧١.

ولكن الكتاب الذى يعتبر أكثر أهمية فيما يتعلق بنظريته الأدبية كان كتابه المعنون «نحو علم اجتماع الرواية» *Pour Une Sociologie du Roman* الذى صدر فى عام ١٩٦٤ وضمنه نظريته الأدبية والفلسفية. وحيث لعب مفهومه الخاص برؤية العالم دورا محوريا فى توضيحها خاصة وإن علم اجتماع الأدب عنده يدور حول قضايا أثارها جورج لوكاتش فى علم اجتماع المعرفة وإن كان قد اختلط بها عند جولدمان عناصر هيكلية جديدة علاوة على نزعتة المضادة للوضعية والإنسانية عموما.

إن مفهوم رؤية العالم الذى كان لدلتاى الفضل فى طرحه اتسع توظيفه فى العديد من المجالات التي ربما لم تكن قائمة أو موجودة على الساحة من قبل. وإذا كان المفهوم فى جوهره يسعى إلى الفهم والوعى بالظاهرة فى سياقها الاجتماعى والثقافى فقد أفاد منه جولدمان الذى تبنى المادية الجدلية وأقام عليه نظريته فى

الأدب والفلسفة على اعتبار أن كل مجال منهما إنما يعبر عن رؤية العالم التي هي في جوهرها عبارة عن وقائع اجتماعية وليست فردية. أما معنى هذا فهو أن رؤية العالم هي في جوهرها وجهة نظر موحدة ومتماسكة إزاء الواقع بأكمله وهذه نقطة محورية وتختلف تماما عن الرؤية الفردية وعن أفكار الفرد التي نادراً ما تكون متماسكة. فكان جولدمان في اهتمامه بالأعمال الأدبية قد اعتبر رؤية العالم أداة تصورية للعمل كما اعتبرها ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الفرد. وأداة تسمح باستخلاص العنصر الأساسي فيما يدرس من أعمال.

★ ★ ★

يمثل عالم الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا الأمريكي وارد هنت جودانف (مع كونكلين Conklin فى الحقيقة) أحدث الاتجاهات البنائية التى عرفت طريقها إلى الانتشار فى الولايات المتحدة الأمريكية بعدما ذاع صيتها أولاً فى فرنسا على أيدى كلود ليفى ستروس بصفة خاصة ومثلها فى إنجلترا آدموند ليتش وهى الاتجاهات التى صارت توصف (بعدها لحقت البنائية التقليدية بعض التحويلات والتعديلات وغير قليل من المفهومات والتصورات التى تتفق والعقلىة الأمريكية) «بالاثوجرافيا الجديدة» New Ethnography أو «بعلم الجماعية» Ethno science كما يطلقون عليها أحياناً.

وقد ولد جود إنف عام ١٩١٩ ومنذ أن بدأ حياته العلمية كأستاذ فى جامعة بنسلفانيا وقد انشغل بتطوير مدخل تحليلى سيمانتيكى لدراسة الأنساق الثقافية وساعده فى تحقيق هذا المشروع الذى اشتهر به قيامه بعدد من البحوث والدراسات بين قبائل التروكيز Trukese فى ميكرونيزيا Micronesia حيث أمدته هذه الدراسات والبحوث بكم هائل من المعلومات والمادة الاثوجرافية التى مكنته من المقارنة والتحليل.

ويحوت الدلالة (السيمانتيك) Semantics يذهب للفويون إلى أنها تهتم بدراسة اللغة من حيث كونها أداة للتعبير عما يجول بالخاطر والفكر. ومع أن علم الدلالة تشتمل بحوثه على علم المفردات Lexicology وعلم المورفولوجيا Morphology وعلم التنظيم (السنتركس) Syntax وعلم الأساليب Stylistics كما أنه يهتم أساساً بدراسة معانى الكلمات والبناءات والعلاقات الدلالية المختلفة وكل ما يطرأ على هذه النواحي بفعل التغيير إلا أن جود إنف قد ذهب بعيداً عما يتصف به هذا العلم من نزعة فلسفية صاحبه منذ نشأته وبخاصة عند ميشيل بريال Breal وأخذ يركز تركيزاً كبيراً على الجوانب الأشد عمقا والتي تتمثل فى نظرية المعنى والمجالات الدلالية بوجه خاص. حيث أعطى عناية فائقة للاقتراب التحليلى Analytical الذى تكون فيه الجملة أو القضية التحليلية صادقة فى ضوء تحليل المركب الذى تصاغ

منه ووفقا للكلمات ومعانيها على حين يتضح صدق الجملة التركيبية فى ضوء الحقائق الامبريقية.

وليس من شك فى أن هناك الكثير من العلماء الذين سعوا دائما إلى إلقاء المزيد من الضوء على الجوانب ذات الصلة الوثيقة بين الانثربولوجيا الثقافية التى تهتم بالإنسان ككائن ثقافى والانثربولوجيا التى تهتم بدراسة الذاتيات الثقافية للشعوب والخصائص التى تميز ثقافة من الثقافات عن الأخرى وهما العلمان اللذان يلقىان بالضوء على الظروف البيئية والاقليمية التى عاشها الإنسان وما نجم عن ذلك من تأثير فى النظم اللغوية وفى التراث الثقافى بوجه عام إضافة إلى الكشف عن القوى المؤثرة فى تباين أو تشابه اللغات بين الأقاليم المختلفة على النحو الذى برز فى أمريكا على أيدى أمثال جرينبرج وهوايتلى اللذين اهتموا بدراسة اللغة وسط البيئة الثقافية العامة. ولكن الملاحظ فيما يتعلق بوجود إنف أنه أكد تأكيدا زائداً على الجوانب المتعلقة بوصف اللغة وعلى النواحي البنائية وإنما فى ضوء تعريفات الناس أنفسهم للجوانب الدالة للحقيقة والأنساق التى تنتظم بها هذه الدلالات كمداخل لتفاهم فيما بينهم وكمداخل لإدراكهم العوالم التى يعيشون فيها وهو ما أطلق عليه مصطلح دلالة الجماعية أو الاثنوسيماتيك Ethnosemantics الذى لقى انتشارا ملحوظا خلال العقود الأخيرة من القرن الماضى.

من بين كتاباته المبكرة كتابه بعنوان «الملكية والعشيرة والمجتمع على المحك» Property, Kin and Community on Truk (1951) ثم مؤلفاته الأكثر تخصصا وأولها بعنوان «الوصف والمقارنة فى الانثربولوجيا الثقافية» Description and Comparison in Cultural Anthropology (1970) والثانى بعنوان «الثقافة واللغة والمجتمع» Culture, Language and Society (1971) أما مؤلفه الثالث فقد أصدره بالاشتراك مع كوتكلين تحت عنوان «تصنيف شعبى: بيليوجرافيا مرتبة موضوعيا عن مرجعيات معاصرة وغيرها خلال 1971» Folk Classification: A Topically Arranged Bibliography of Contemporary and Background References Through 1971.

★ ★ ★

يصنف عالم الاجتماع الأمريكي ألفين جولدنر على أنه واحد من أكبر أنصار الاتجاه النقدي في علم الاجتماع فهو من أبرز العلماء الذين أسهموا في نقد علم الاجتماع المعاصر والنظرية الاجتماعية وهو بذلك يمثل الحركة النقدية المعاصرة التي تركز بصفة أساسية على ضرورة ربط النظرية بالسياقات الاجتماعية.

وقد ولد جولدنر في نيويورك عام ١٩٢٠، وتلقى تعليمه في جامعة كولومبيا التي نال منها درجة الماجستير عام ١٩٤٥ والدكتوراه عام ١٩٥٢. وخلال هذه الفترة التحق بجامعة بافالو Buffalo حيث عمل محاضرا في علم الاجتماع في الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥١. وبعدها عمل استاذا مساعدا في كلية آنتيوش (٥٢ / ٥٤) ثم أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة واشنطن (١٩٥٤ / ١٩٦٧) ودعته جامعة هارفارد كأستاذ زائر خلال فصل الربيع والصيف (١٩٥٦) ثم عين أستاذا للنظرية الاجتماعية منذ ١٩٧٦ وقام بالتدريس في الجامعة العبرية وجامعة وارسو وجامعة برلين الحرة وفي مدرسة الاقتصاد في ستوكهولم.

وهناك مقولة مشهورة قالها جولدنر وتشير إشارة واضحة إلى متضمنات رؤيته ومواقفه الفكرية مؤداها «إننا في حاجة إلي مجتمعات جديدة وليس تنظيرات جديدة» إذ يمكن في ضوءها فهم ما طرأ على تفكيره من تقلبات. فمما لا شك فيه أن جولدنر كان في مقدمة علماء الاجتماع المعاصرين الذين وجهوا أشد الانتقادات إلى الوظيفية وبخاصة وظيفية تالكوت بارسونز Parsons لاعتقاده أن بارسونز قد اعتمد في تفسير التغيير الاجتماعي على أساس تطوري الأمر الذي اعتبره جولدنر محاولة لحياء التطورية السبنسرية رغم التمسح بالتقليد الماركسي وهو ما تقبله جولدنر إلى حد ما على اعتبار أنه حتى صدور كتابه الشهير «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي» The Coming Crisis of Western Sociology الذي صدر في ١٩٧٠ كان يصنف كواحد من الوظيفيين الذين يهتمون بالتنظيم الصناعي وإن كانت هذه النظرة قد تغيرت تغيرا جذريا ليصير واحدا من الراديكاليين وأنصار الاتجاه النقدي للعلم خاصة وأنه قد سعى منذ وقت أسبق على هذا التاريخ إلى تطوير

نظرية التنظيم لكي تكون أقدر علي دراسة ديناميات الحياة الاجتماعية في تنظيمات العمل وظهر ذلك في دراسة له لأحد المصانع حيث حاول اختبار نظرية ماكس فيبر عن البيروقراطية التي تزايدت في المجتمع الصناعي المعاصر. ففي كتابه الذي نشر في ١٩٥٥ بعنوان «أنماط البيروقراطية الصناعية» - Patterns of Industrial Bureaucracy سعى إلى تقديم صورة متكاملة للنمو التنظيمي يظهر فيها تأثيره بأفكار روبرت ميرتون Merton وعلاقة ذلك بالظروف المجتمعية من منظور ثقافي وحضاري محدد في ذلك عناصر البيروقراطية وآثارها وعلاقات القوة التي تعمل في الكيان الواقعي للتنظيم وتؤثر في طبيعة العلاقات الإنسانية القائمة فيه .

إذن فيمكن اعتبار كتاب «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع» نقطة تحول مركزية في تفكير جولدنر دفعته إلى البحث في طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع وإلى تتبع أصول النظرية السوسيولوجية والتعرف على العلاقات القائمة بينها وبين الاتجاهات الفكرية والمذاهب والأيدولوجيات المختلفة. كما سعى في الوقت نفسه إلى الكشف عن العلاقة بين البناء التحتي للمفكر أي مشاعره واهتماماته التي تتحكم في فكر المنظر وبين النظريات التي يقدم على صياغتها لوصف الواقع وتفسيره ومن ثم تشخيصه لأزمة العلم لتصحيح مساره وتخليصه من أزمته التي كان على قناعة بقرب وقوعها .

ولقد تبلورت المشكلة التي قابلها فيما يعاينه علم الاجتماع من مشكلات نظرية ومنهجية والتداخل الكبير بين مختلف الاتجاهات التي لا تحظى إلا بقبول ضئيل بين المشتغلين بالعلم وهو ما عبر عنه بمشكلة الوضعية المعاصرة لعلم الاجتماع والتي اعتبر أنها مشكلة تحليلية بالدرجة الأولى .

في عام ١٩٧٣ نشر جولدنر كتاباً جديداً بعنوان «من أجل علم الاجتماع: التجديد والنقد في علم اجتماع اليوم» For Sociology: Renewal and Critique in Sociology عبارة عن محاولة للرد على بعض الانتقادات التي وجهت إلى كتابه «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي» فكان بمثابة مناقشة مستفيضة لدعوى وجود علم اجتماع متحرر من القيمة وهو ما أنكره بعنف مؤكداً في ذلك على تأثير الأعمال السوسيولوجية بالأيدولوجيا مما جعله يركز على معارضة ونقد فيبر ودور كايم

وبارسونر خاصة من حيث تأثيرهم الشديد بكارل ماركس ومؤكداً في الوقت نفسه على صعوبة وجود نظرية للعلم دون نقد المجتمع.

ولقد قامت محاولات عديدة لإرساء ما يعرف بعلم الاجتماع الجديد New Sociology وبخاصة على أيدي س. رايت. ميلز Mills وأعماله التي ارتبطت باليسار الجديد الذي ظهر في الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين. ولكن هذه الانتفاضة سرعان ما أصابها الاضمحلال بسبب عدم تطور أفكارها وفشلها في إعطاء العالم الجديد روحاً جديدة. ثم ظهر بعد ذلك علم الاجتماع النقدي Critical ومن بعده علم الاجتماع الراديكالي Radical وجميعها حركات ارتبطت بالاتجاهات السياسية السائدة.

غير أنه في خضم هذه المحاولات قدم ألفين جولدنر شكلاً جديداً فيما يعرف باسم علم الاجتماع التوفيقى أو المرتد Reflexive حيث ينحت عالم الاجتماع مفهوماته وتصوراتهِ الاجتماعية متسلحاً بتكوينه الفكرى وثقافته الذاتية الأمر الذى وصفه البعض بأنه نوع من الأمبريقية التى تقتصر إلى التجديد. ومهما يكن الأمر فإن كل هذا يصدمننا بحقيقة وجود أزمة سواء فى الحياة الاجتماعية أو نمط التفكير الذى يواجه به علم الاجتماع واقعه المأزوم. الأمر الذى عبر عنه فى كتابه عن أزمة علم الاجتماع والتي حاول أن يبلورها من خلال النسقين السائدين فى علم الاجتماع وهما الوظيفية من ناحية والماركسية من ناحية أخرى باعتبارهما النسقين المسيطرين تماماً على النظرية الاجتماعية وكله مما يدفع إلى مزيد من البحث عن فكر جديد وأطر نظرية جديدة تكون أقدر على فهم الواقع القائم وتغييره.

★ ★ ★

على الرغم من أصوله الروسية فإن عالم الانثربولوجيا الكسندر وفيتش جولد نفايزر يعتبر واحدا من أهم علماء الانثربولوجيا الأمريكيين الذين أضافوا إلى الانثربولوجيا الثقافية على وجه الخصوص، فقد لعب دورا هاما في هذا الفرع وأيضا في علم الاجتماع الأمريكي والتحليل النفسى واهتم في ذلك بمسألة التمايز والتغاير الجنسى بين سكان أمريكا ومعظمهم من المهاجرين ومن أصول وبيئات ثقافية مختلفة ولذا كان اهتمامه بتطور الانثربولوجيا الثقافية ضمن مبادرات الرواد الأوائل من أمثال كروبير وكلكهوهن.

ولد جولد نفايزر في كييف Kiev عام ١٨٨٠ وهاجر مع أسرته إلى أمريكا حيث درس تحت إشراف فرانز بواز في جامعة كولومبيا التي منحته درجة الدكتوراه عام ١٩١٠. ونتيجة لتأثره بأستاذه اهتم منذ وقت مبكر بمعالجة العديد من المشكلات والقضايا الثقافية التي تتراوح ما بين الحركات العقلية في علم النفس والتحليل النفسى حيث بلور قضيته الأساسية القائلة بأن الانتشار الثقافى ليس عملية ميكانيكية أو عمياء ولكنه يعتمد أساسا على مدى ملاءمة الثقافات للحاجات الأساسية في المجتمع الذى يستقبلها. وأبرز في ذلك الكثير من قضايا الانتشار الثقافى وتتبع هجرة السمات والعناصر الثقافية لإعادة تركيب ماضيها ثانية وكان يركز في ذلك على المشابهات الثقافية التى توجد في كثير من النظم الاقتصادية والدينية مؤكدا على مبدأ الامكانيات المحدودة Limited Possibilities الذى تتحد معه هجرة هذه السمات والعناصر الثقافية وانتشارها.

من ناحية أخرى مثلت العقلية البدائية موضوعا رئيسيا ضمن اهتماماته ولكن من خلال مدخل معين يدور حول الاكتشافات والاختراعات والتحسينات الاقتصادية والتكفية التى تلجأ إليها المجتمعات البدائية وناقش في هذا قضية التفكير المنطقى لدى البدائيين منتهيا إلى أنه ليس صحيحا بالمرّة أن نعزو إلى العقلية البدائية دورا سلبيا وقرر في هذا أن لكل مجتمع بدائى طرائقه الخاصة فى التعامل مع البيئة والحفاظ على المهارات والمعلومات التى تؤسس على التجربة إنما كل المشكلة تنحصر فيما إذا كانت هذه المعارف تمثل نوعا من العلم كما يعرفه المجتمع المتقدم.

ومع أنه قام ببعض الدراسات الحقلية بين قبائل الايروكوا Iroquois في أمريكا الشمالية إلا أنه اهتم اهتماما خاصة بدراسة المشكلات النظرية فدرس الطوطمية التي تصور أنها مؤسسة على علاقة رمزية صوفية غامضة نافيا وجود طبقة أو فئة واحدة للممارسات الطوطمية. وربما كان من أهم مواقفه ذلك الذي عبر عنه بأن العوامل التصورية للشعوب الأمية لا تختلف اختلافا جوهريا عن عالم الإنسان الحديث الأمر الذي ناقشه باستفاضة في كتابين رئيسيين من مؤلفاته أولهما: «التاريخ وعلم النفس والثقافة» (١٩٣٢) وكتابه الثاني «الانثربولوجيا» الذي صدر في عام ١٩٣٧ قبل وفاته بثلاثة أعوام (١٩٤٠) في بورتلاند بأمريكا.

★ ★ ★

اشتهر عالم الأنثروبولوجيا واللغويات الأمريكي جوزيف هارولد جرينبيرج بتصنيفه الشهير للغات واللهجات الأفريقية وهو التصنيف الذي لقي قبولا عالمياً وبخاصة بعدما أوضح فيه الكثير من الانتقادات التي وجهها لبعض التصنيفات اللغوية التي قال بها بعض العلماء وبالذات التصنيفات الحديثة نسبياً التي ارتكزت على جهود علماء مرموقين مثل كارل ماينهوف Meinhof ووسترمان Westermann وكشف عن أوجه الضعف في كثير من الأدلة التي أقيمت على الظن والافتراض دون اللجوء إلى الشواهد الواقعية والتاريخية.

وقد ولد جرينبيرج عام ١٩١٥ في بروكلين بأمريكا واكتسب شهرته كمتخصص في الثقافة واللغات الأفريقية وبخاصة في الخصائص والسمات أو ما يعرف بالعموديات اللغوية التي تشارك فيها عدد من اللغات التي تنتشر في عدد من البيئات أو المناطق اللغوية الواسعة. ولقد حصل جرينبيرج على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة نورث وسترن في عام ١٩٤٠ ولكنه قام بدراسة اثنوجرافية في الهوسا Hausa في شمال نيجيريا (١٩٣٨ - ١٩٣٩) تمخضت عن واحد من أعمق كتبه دار حول «أثر الإسلام في عقيدة سودانية» حيث ظل الإسلام يمارس دوراً هائلاً في صوغ أنماط الحياة عند الشعوب الزنجية في السودان ومعظم أفريقيا الشرقية، ثم قام بالتدريس في جامعتي نورث وسترن ومينسوتا وصار أستاذاً للأنثروبولوجيا واللغويات في جامعة ستانفورد (١٩٦٢) وكان زميلاً في مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية التابع لهذه الجامعة وأصبح محاضراً متميزاً أول (١٩٧٠) في الرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية.

وليس من شك في أن أفريقيا تعتبر من الناحية اللغوية من أشد مناطق العالم تعقيداً وربما لا يضاهيها في هذه الناحية إلا سكان أمريكا الجنوبية الأصليين وسكان غينيا الجديدة ولهذا فقد كان جوهر بحوثه يتركز في قضية أساسية أصبحت شغله الشاغل وهي البحث عن العلاقات المشتركة والعامية في اللغات التي ذهبت الدراسات والبحوث إلى أنها تقدر في أفريقيا بأكثر من ثمانمائة لغة وإن كان

البعض قد قفز بهذا الرقم إلى ١٥٠٠ لغة ولهجة الأمر الذى يثير التساؤل عن كيفية ظهور ذلك الكل المعقد من التنوع اللغوى فى القارة وعن السمات والخصائص التى تشارك أو تتمايز بها هذه اللغات ودور الاتصال أو الاحتكاك المباشر بين شعوب القارة وغيرها من الشعوب.

فى ضوء دراساته التى أجراها فى نيجيريا طور جرينبرج تصنيفا حديثا للغات الأفريقية وقد نشر أولا فى سلسلة من المقالات فى جورنال ساوث وسترن للأنثروبولوجيا ولكنه صدر بعد ذلك فى كتاب باسم «دراسات فى التصنيف اللغوى بأفريقيا» Studies in African Linguistic Classification وهو كتاب يعتبر بمثابة عمله الرئيسى الذى بنى شهرته حيث أقام تصنيفه على أساس وجهتى نظر أساسيتين الأولى النظر إلى الفصائل اللغوية من ناحية التطور والارتقاء Genetic والثانية من حيث الاتفاق فى الأصول والقواعد والبناء Typological وذهب إلى أن هناك خمس أسر لغوية متميزة وهى النيجر - الكردوفانية Niger-kordofanism، الأفروآسيوية Afroasiatic، الصحراوية النيلية Nilo-Saharan، والماكروسودانية والكليك التى تشمل قبائل الهنتوت والفئات السكانية المختلفة من قبائل البوشمن المنتشرة فى جنوب غرب أفريقيا وبعض المناطق الأخرى فى شرق أفريقيا أيضا. وذلك بخلاف سبع فئات أو سبع لغات فردية فى مناطق صغيرة نسبيا من بينها السونجهاى، والمابان، والفور، والكومان حيث يعتبر مجموع الأسر اللغوية ١٢ لغة تشغل أكثر من ٩٨٪ من مجموع المساحة والسكان.

وقد صدرت لجرينبرج العديد من المقالات والمؤلفات المتخصصة فى اللغات والثقافات الأفريقية. ولا يتسع المجال هنا للتعرض لمقالاته التى كتبها فى اللغويات النظرية وإن كان لابد من ذكر كتابه فى هذا المجال المعنون «الأنثروبولوجيا اللغوية» Anthropological Linguistics (١٩٦٨) وكتابه الهام الذى أصدره بعد ذلك تحت عنوان «اللغة والثقافة والاتصال» Language, Culture and Communication (١٩٧١) وإن كان قد صدر له قبل هذا ببضعة أعوام كتابان آخران عن لغات أفريقيا الأول بعنوان «لغات أفريقيا» The Languages of Africa (١٩٦٣) والثانى بعنوان «عموميات اللغة» Uiniversals of Language وصدر فى العام نفسه ثم كتابه الضخم المعنون «عموميات اللغة الإنسانية» Universals of Human Language (١٩٧٨) فى أربعة مجلدات كاملة.

وعموما فقد تمكن جرينبرج فى هذه الدراسات والبحوث من التوصل إلى بعض النتائج الهامة حيث دلل على فساد بعض الفرضيات القديمة التى تذهب (ماينهوف) إلى وجود تعاقب فى أنواع اللغات بدلا من القول بما تؤكده البحوث من تداخل واختلاط كثير من الظواهر اللغوية الدالة على وجود روابط تاريخية حقيقية. منتهيا إلى أن اللغات الأفريقية تشترك - بالرغم من تعددها وتنوعها - فى بعض الخصائص الأساسية التى تقوم وراء التعقيد الذى يحيط بنشأتها وأصولها. والأهم من ذلك أن هذه اللغات تتسجم بشكل ملحوظ مع الجوانب الأخرى من الثقافة الأفريقية. وكما يقول هو نفسه أنه بالرغم من أن المنظر اللغوى الشامل كاف فى ذاته لأن يكشف عن مدى تفرع الظاهرة اللغوية وانشعابها فمن الصعب القول بأن كل هذا يتم بطريقة عشوائية مما يعنى أنه يوجد بالفعل وراء هذه (البرقشة) أو هذه الألوان التى تتكشف لنا الظاهرة اللغوية من خلالها نوع من النظام والترتيب والمبادئ الأساسية التى تحدد شكل وطبيعة مثل هذا الاتساق المطلوب للوفاء بغايات الإنسان وحاجاته وهو الاتجاه الذى تأدى بالعلماء إلى أن يؤكدوا على حقيقة أن اللغات المختلفة أيا كان المدى الذى تضرعت به لابد وأن تكون قد تضرعت أساسا عن بعض أصول محددة هو ما أطلقوا عليها اسم الفصائل أو العائلات العامة الكبرى التى اعتبرت الأصل الأول لكل ما هنالك من لغات ولهجات.

★ ★ ★

تلقى تعليمه وتدريب كباحث أنثروبولوجى كما تخرج فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية . ثم قام بالتدريس فى هذه المدرسة وأيضا فى جامعة هارفارد وتخصص فى أنثروبولوجيا المجتمعات الأفريقية حيث عمل أستاذا فى مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية التابعة لجامعة لندن . بالإضافة إلى عمله كخبير متميز وباحث اجتماعى لحكومة تتجانيا علاوة على منصبه كأستاذ للأنثروبولوجيا فى جامعة بوسطن حيث شارك فى أحد مشاريعها الضخمة المتعلقة بالدراسات الأفريقية.

ولا ترجع شهرة جليفر إلى مناصبه العلمية والأكاديمية ولكنها ترجع بالدرجة الأولى إلى بحوثه ودراساته الميدانية التى أجراها فى أجزاء ومناطق مختلفة فى شرق ووسط أفريقيا منذ عام ١٩٤٨ وبخاصة فى أوغندا وتزانيا وكينيا اللتين درس فيهما مختلف القضايا المتعلقة بوسائل وأساليب فض المنازعات إضافة إلى مشكلات التوطين والإقامة ومشكلات الهجرة العمالية وتتجانيا بالذات وكلها دراسات حقلية تطلبت منه دراسة وتحليل البناءات الاجتماعية للمجتمعات التى عمل فيها والوقوف على طبيعة العلاقات الاجتماعية وصور وأنماط التفاعل الاجتماعى بين الأفراد والجماعات وبين المجتمعات بعضها وبعض وما قد يقوم بينها جميعا من علاقات المودة والتعاون أو التباين والشقاق والعدوان والدور الذى تلعبه القرابة بصفة خاصة فى المصالحات والمفاوضات لإذابة الصراعات حفاظا على وحدة القبيلة (أو الوحدة القرابية عموما) وعلى تماسكها الاجتماعى خاصة مع غيبة النظم القضائية والمحاكم والقانون بمعناها الحديث.

وهناك بعض المفهومات التى لها أهمية خاصة عند جليفر منها مفهوم القبيلة ومفهوم القبلية اللذين يختلفان عنده عما نجده عند إيفانز بريتشارد مثلا أو عند جلوكمان . وهنا اهتم اهتماما ملحوظا بما يوجد فى أوغندا بالذات ويطلق عليه رابطة الصداقة Bond of Friendship التى تجمع بين شخصين فى ضوء وضعيات وشروط معينة كأن يكونا من نفس الجنس والسن ومن حيث التكافؤ الاجتماعى والاقتصادى وبذلك تتوثق علاقة الصداقة التى تعبر عن ذاتها فيما يقوم بين الأفراد

من اعتماد متبادل وتعاون وتساند وخصوصا فى حالات الاعتداء على الآخرين وهو ما قد يتم وفق بعض الشعائر والطقوس فى كثير من الأحيان.

وربما يعتبر جليفر من أغزر الأنثروبولوجيين انتاجا وتأليفا فقد كتب عددا هائلا من المقالات (خاصة فى القانون ووسائل فض المنازعات). فى المجالات الأنثروبولوجية والمجالات القانونية من بينها «مسح مبدئى عن التركانا» A Pre-liminary Survey of the Turkane (١٩٥١) عن قبيلة «التركانا» فى شمال كينيا. وكذلك مقالته الشهيرة عن «المفاوضات كنموذج لفض المنازعات : نحو نموذج عام» Negotiation as a Model of Dispute Settlement: Towards a General Model (١٩٧٣) هذا طبعا بخلاف كتبه الرئيسية التى ألفها سواء بمفرده أو بالاشتراك ومن بينها «قطعان العائلة» Th Family Herds (١٩٥٥) وفى العام نفسه «الهجرة العمالية فى اقتصاد ريفى» Labor Migration in a Rural Economy (١٩٥٥) و«الضبط الاجتماعى فى مجتمع أفريقى» Social Control in an African Society علاوة على كتابه الذى ألفه بالاشتراك مع زوجته بامبلا «النيلوجامية الوسطى» The Central Nilo-Hamites (١٩٥٣) وأيضا كتابه «حالة العائلة فى أفريقيا» The Family State in Africa (ألفه مع جراى Gray) ثم كتاب آخر عن «التقليد والتحول فى شرق أفريقيا ؛ دراسة للعنصر القبلى فى المنطقة الحديثة» Tradition and Transition in East Africa : Studies of Tribal Element in the Modern Era (١٩٦٩).



ولد عالم الاجتماع الفرنسى جورج جيرفيتش فى روسيا عام ١٨٩٦ وعاش فترة فى ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الأمريكية واستقر أخيرا بعد الحرب العالمية الثانية فى فرنسا وظل يكتب بالفرنسية فى مختلف ميادين علم الاجتماع حتى احتسب إنتاجه العلمى لفرنسا وترجمت مؤلفاته وكتاباتة إلى العديد من اللغات من بينها الإنجليزية والألمانية والهولندية والإيطالية والعربية.

ويعتبر جيرفيتش واحدا من أبرز علماء الاجتماع الفلسفى الفرنسى اشتهر بتمييزه بين الدراسة الاجتماعية للجماعات الصغيرة (الميكروسوسولوجيا) والدراسة الاجتماعية للجماعات الكبيرة أو الماكروسوسولوجيا ومن خلال هذين الإطارين تعرض جيرفيتش لكل موضوعات علم الاجتماع تقريبا من خلال خلفيته النظرية والفلسفية التى أظهرت - على الأقل فى بعض مراحلها - مدى تأثره بمدرسة الظواهر وهو التأثر الذى سينفيه فى مرحلة متقدمة من حياته.

وربما كان مفهوم الظاهرة الاجتماعية الكلية الذى استعاره من مارسيل موس Mauss أهم المفهومات التى قدمها جيرفيتش ويقصد به الصورة الكلية للمجتمع كما يبدو فى الخبرة المباشرة الأمر الذى يكشف عن ميله للنزعة التى أطلق عليها النزعة فوق الأمبريقية أو المغالية فى الأمبريقية تنصلا من ارتباطه الأولى بالظواهراتية الذى كان قد عبر عنه فى كتاباته المبكرة. كما يعتبر مفهوم البناء الاجتماعى الذى كتب فيه بشكل مطول من تلك المفهومات الرئيسية وكذلك مفهوم الواقع الاجتماعى المباشر أو العقل الجمعى الذى يقترب به كثيرا مما نجده عند دوركايم .

وباعتباره فى مقدمة الفلاسفة الاجتماعيين الذين تروا فى أقسام الفلسفة بالسريون فقد اهتم كثيرا ببحث العلاقة بين علم الاجتماع المعرفى ونظرية المعرفة حيث بين إمكانية التعاون بينهما مهاجما بذلك القائلين برفض علم الاجتماع المعرفى لأنه يقوم على القول بوجود معرفة جمعية، وقد مكنه اهتمامه بهذه القضية من أن يقدم مجموعة دراسات مونوجرافية عن سان سيمون وأوجست كونت وبيرودون . والأهم من ذلك توجيهه إلى دراسة التغير الاجتماعى والثقافى وكذلك مسائل التدرج الاجتماعى مما كان له أثره على علماء الاجتماع الفرنسيين فى كندا.

ولأن جيرفيتش كان يؤمن بأنه لا يوجد شيء ثابت في المجتمع الذي يتصف بالتغير وبالحركة الدائمة فقد مثل علم اجتماع التنمية والدور الذي يقوم به محورا أساسيا في تفكيره وكان لهذا تأثيره البالغ في الكثيرين ممن اهتموا بالتنمية وبخاصة جورج بالاندير Balandier وشارل بتلهام Bettleim وآلان ثورين Touraine والفريد سوفى Sauvy وكلود ليفى ستروس Strauss ولهذا فقد كان من بين اهتماماته وظيفية الحكم المحلى والديمقراطية كمظهرين من مظاهر المشكلات الاجتماعية حيث أثار في كتابه Democracy as a Sociological Problem الكثير من التساؤلات التي ألفت مزيدا من الضوء على الموضوع. وهذه صفة تميزت بها سائر كتبه ومؤلفاته وبخاصة كتابه «الجدل وعلم الاجتماع» -Dialectique et Sociologie (1962) و«الدور الحقيقي لعلم الاجتماع» -La Vocation Actuelle de la Sociologie (1968) ومقالته المطولة التي كتبها عن «مفهوم البناء الاجتماعى» -Le Concept de la Structure Sociale (1955) وكذلك في بعض كتاباته المبكرة التي برز فيها اهتمامه بالجوانب الأخلاقية مثل Morale Theorique et Science des Moeurs (1948) وكتابه عن «التكنوقراطية والتصنيع» -Industrialisation et Technocratie (1949).

وعلى العموم فإن آراء جورج جيرفيتش تعكس إنكارا واضحا لإمكانية التوصل إلى قوانين عليية أو تطويرية أو وظيفية في علم الاجتماع على اعتقاد منه بأنه لا يوجد في العلم ما يعرف بالاحتمية أما إذا كانت هناك حتمية فإنها لا توجد إلا من خلال القوانين الإحصائية فحسب وبعض الارتباطات الاحتمالية.

★ ★ ★

تعدت آراؤه وأفكاره الحدود الحضارية والإقليمية لوطنه ألمانيا وأصبح واحدا من أبرز الفلاسفة وعلماء الاجتماع المعاصرين في أوروبا كلها. وباعتباره أحد الورثة الشرعيين لتراث مدرسة فرانكفورت فإن شهرته ترجع إلى خبرة أكثر من ثلاثين عاما قضاها في مناقشة مختلف القضايا المعاصرة فكتب في المجتمع وفي المعرفة والتاريخ والتكنولوجيا وعلم النفس والاتصال والاجتماع وفي موضوعات أخرى كثيرة بالإضافة إلى دوره في الحياة العامة لوطنه وهو يمر بمختلف مراحل تطوره السياسي والاجتماعي والثقافي بعامة.

ولد يورجن هابرماس في عام ١٩٢٩ ونال تعليمه في جامعتي توبنجن Tobingen وفرانكفورت Frankfurt وهي مرحلة كانت بمثابة حجر الزاوية في تحديد اتجاهاته على اعتبار أن اهتمامه بكل من الماركسية والفرودية أخذ في التشكل وفي التبلور الأمر الذي أدى به إلى رؤاه ومواقفه الخاصة التي لم تكن في كثير من المواضع تتفق تماما مع المسلمات التقليدية التي كان يأخذ بها أيا من الاتجاهين وبخاصة بعدما زاول التدريس في كل من جامعة فرانكفورت وجامعة هايدلبرج Heidelberg وتولى إدارة معهد ماكس بلانك في الفترة من ١٩٧١ - ١٩٨٢ التي ربما كانت أخصب فترات عطائه العلمي.

وليس من شك في أن هابرماس يعتبر من أبرز أعضاء مدرسة فرانكفورت ولكن من المهم القول مع ذلك أنه يختلف كثيرا عن الجيل الأول من رواد النظرية النقدية سواء من حيث المنطلقات أو الغايات التي سعى إلى تحقيقها فباعثاره فيلسوفا وجد متعة كبيرة في تطوير النظرية الاجتماعية ويوجه اهتماما خاصا إلى علم اجتماع المعرفة بمعنى أنه حول اهتمامه لنقل وتحويل النظرية النقدية من اتجاهها السياسي لتصبح نظرية في المعرفة الاجتماعية عن طريق التعرف على شروط المعرفة الممكنة والتعرف على كيفية نقد المعرفة ذاتها من خلال الإحاطة

بالبناء وبالمحتوى. وهى عملية استندعت الاعتماد كثيرا على الاتجاه السيكولوجى والتحليل النفسى على وجه الخصوص.

فى أوائل الستينيات من القرن الماضى نشر أول كتبه الهامة التى حددت ملامح نظريته النقدية تحت عنوان «التحول البنائى للحياة (المحيط) العام» The Structural Transformation of the Puplic Sphere (١٩٦٢) حيث ناقش دور المثقفين الذى أكد ضرورة قيامه على قدر من الحرية وسهولة الاتصال بال جماهير . ونزولا على هذه الغاية العملية سعى إلى إضفاء نوع من المشروعية على الفكر الذرائعى فى نسقه النظرى ذاهبا إلى أن العقل الذرائعى له دور حيوى وأصيل مستخدما التحليل النفسى لتوضيح هذا باعتبار التحليل النفسى نموذجا للعلم المنقذ أو (المخلص) ويقصد به ذلك العلم الذى لا يؤدي فقط إلى إنتاج المعرفة ولكنه يمكن الإنسان أيضا من أن يصبح على وعى بطبيعة المشكلات وأسبابها وكيفية مواجهتها.

كتابه الهام الثانى هو «المعرفة والمصالح الإنسانية» Knowledge and Human Interest (١٩٦٨) وقارن فيه التحليل النفسى بالنظرية الاجتماعية مثيرا فى ذلك العديد من المسائل المتعلقة بالمنهجية وبالتصورات والمفاهيم الأساسية. وفى داخل هذا الإطار بين هابرماس أن هناك ثلاث مصالح معرفية يشترك فيها البشر أجمعين هى المصالح الفنية (تتعلق بمعرفة البيئة والسيطرة عليها وتؤدى إلى ظهور العلوم الأمبريقية وفى مقدمتها (العلوم الطبيعية) والمصالح العملية (تتعلق بالقدرة على الفهم المتبادل وتؤدى إلى ظهور العلوم التأويلية) وأخيرا المصالح التحريرية (تتعلق بالرغبة فى التخلص من كل معوقات الفهم والاتصال وتؤدى إلى ظهور العلوم النقدية وفى مقدمتها التحليل النفسى) ومن الواضح أن هذا التصور تكمن وراءه بعض الرؤى الماركسية التقليدية فى الوجود الإنسانى وإن كان لا يمكن اتهامه بالحمية الاقتصادية بمفهومها الماركسى القديم بسبب ما يحويه التصور من إشارات وتلميحات رمزية ولأن هابرماس قد اعتقد أيضا أن هذه الحتمية إنما ترتبط بالمرحل المبكرة من تطور الرأسمالية وهى مرحلة تجاوزتها المجتمعات الرأسمالية الحالية بكثير وفى أكثر من اتجاه وفى عدة مستويات.

أما كتابه المهم الثالث والذى يمكن النظر إليه على أنه الإطار الأشمل لنظريته الاجتماعية فهو المعنون «نظرية الفعل الاتصالى» The Theory of Communicative

Action (١٩٨١) حيث سعت نظريته النقدية إلى خلق وتوليد وعى جديد بالطبيعة المزدوجة للوعى أو الرشد باعتباره رشدا ذرائعيا واتصاليا فى آن واحد. وهو يقصد بالفعل الاتصالى الكلام والحديث الرشيد الذى يتجه إلى إحداث نوع من الاتفاق ومن ثم فهو يعتبر بمثابة الشكل النهائى للسلوك الاجتماعى.

وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل اهتمامات هابرماس والجوانب المختلفة لتفكيره ما لم ننتبه إلى ما طرأ على تفكيره من تحولات وبخاصة فى السنوات الأخيرة وإذا كان فى هذه الكتب التى عرضنا لها حتى الآن كان همه فى مواضع كثيرة منها منصبا على نقده اللاذع للوعى التكنوقراطى الذى يفرض نفسه بشدة على العالم الواقعى للمجتمعات الغربية عموما فقد اتسع نطاق هذا النقد خلال العقدين الأخيرين بالذات ليشمل النواحي الثقافية على اتساعها. ففى منتصف الثمانينيات انخرط فى الانتقادات التى وجهت إلى الحداثة ولما بعد الحداثة إذ صدر مؤلفه المعنون «حوار فلسفى حول الحداثة» The Philosophical Discours of Modernity (١٩٨٥) وأتبعه بأعوام أربعة بكتابه المعنون «النزعة المحافظة الجديدة: نقد ثقافى ونقاش تاريخى» The New Conservatism: Cultural Criticism and Historian's Debate (١٩٨٩) وهما كتابان كانا بمثابة مدخل واسع ليطل منه على قضايا معاصرة عاشتها ألمانيا والعالم بأكمله خلال هذين العقدين وما زالت تأثيراتهما باقية إلى اليوم. حيث ظهر كتابه «عندما سقط الحائط» When the Wall Came Down (١٩٩١) الذى احتوى على عدد من المقالات السياسية والثقافية عن سور برلين والوضعيات السوسيواقتصادية داخل وخارج ألمانيا التى نشأت على أثر انهيار حائط برلين وظهور ألمانيا فى ثوبها الجديد.

وأخيرا هناك أيضا كتابه «الماضى كمستقبل» The Past as Future (١٩٩٤) وفيه اهتمام مباشر بمختلف القضايا والظروف التى كانت ألمانيا طرفا فيها بالإضافة إلى بعض الأحداث العالمية ورأيه فيها مثل حرب الخليج وسائر الضغوط الاقتصادية والسياسية التى تتعرض لها أنحاء عديدة فى العالم والتى لا فكاك منها إلا بمزيد من الوعى والإدراك النقديين لمختلف الأوضاع ومسبباتها .

★ ★ ★

على مدى أكثر من ثلاثين عاما كان ألفريد كورت هادون المساند أو ربما الممثل الوحيد للأنثروبولوجيا البريطانية في كامبريدج ولهذا فلا يعتبر غريبا أن اعتبر واحداً من الرواد الذين يرجع إليهم الفضل في تأسيس هذا العلم في بريطانيا في العصر الحديث وبالرغم حتى من حقيقة أنه لم يكن قد تخصص أصلاً في الأنثروبولوجيا ولكنه درس في بداية حياته التشريع المقارن وعلم الحيوان بل وقام بتدريس هذا العلم الأخير في الكلية الملكية للعلوم في دبلن منذ أن عين استاذاً لعلم الحيوان بها في عام ١٨٨٠.

ولد هادون في عام ١٨٥٥ في لندن وتوفي وهو في الخامسة والثمانين من عمره في إبريل عام ١٩٤٠ ونجح خلال هذه السنوات في أن يحقق للأنثروبولوجيا مكانتها العالية بين العلوم التي تعتمد على الملاحظة لا بسبب مؤلفاته وأعماله العلمية فحسب ولكن بسبب تدريسه للعلم والجهد الخارق الذي بذله للتعريف به والعمل على إرساء قواعده حيث درس لعدة أجيال من الشباب الذي برز منهم علماء متميزون من بينهم رادكليف براون الذي درس علم الحيوان على يديه.

ويبدو أن دراسات هادون المبكرة لعلم التشريح وعلم الحيوان كانت السبب في تحول اهتمامه إلى دراسة الإنسان ، فبعد أن تلقى هذه العلوم في كريسست كوليج Christ College بكامبريدج وهي العلوم التي يشهد الكثيرون بتفوقه فيها وأصدر حولها أكثر من كتاب من بينها كتابه الأول بعنوان «مقدمة في دراسة علم الأجنة» - In-troduction to the Study of Embryology (١٨٨٧) وهو كتاب اتبعه بعدة دراسات وبحوث في علم الأحياء البحرية Marine Biology أخذ يمارس في دراسته لهذه النواحي المتخصصة بين ما يلاحظه في عالم الحيوان وملاحظاته لعالم الإنسان وكان ذلك بمثابة بداية الطريق الذي سار فيه بقية حياته.

ويمكن القول بأن رحلته التي قام بها في ١٨٨٨ إلى مضائق توريس Torres Strait في ميلانيزيا لدراسة الحيوانات البحرية هي التي مثلت المنعطف الحقيقي في اتجاهاته إذ إنه لم يقصر اهتمامه على دراسة هذه النواحي ولكنه تحول أيضا

إلى الاهتمام بدراسة الشعوب والجماعات المحلية فى ميلانيزيا وهو اهتمام تحول على أى الأحوال إلى شغف بدراسة الإنسان وكان بذلك من أوائل العلماء الذين شغلتهم مسألة تصنيف الأجناس البشرية إذ وضع تصنيفاً على أساس شكل وطول الجمجمة ولون البشرة وطول القامة فهناك أجناس طويلة الرأس وأخرى رؤوسهم متوسطة وغيرها عريضة والنمط الأول كما الاستراليين وشعوب البحر المتوسط والثانى فى شمال أوربا والنورديين والثالث بين الأسيويين .

والواقع أنه كان لهذه الرحلة نتائجها الحاسمة ففند عودته إلى كامبريدج عام ١٨٩٣ أخذ يحاضر فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية . ولم تمض خمس سنوات حتى كان ينظم عام ١٨٩٨ بعثة جامعة كامبريدج الأنثروبولوجية التى قادها إلى جزر ومضايق توريس وغينيا الجديدة New Guinea وساراواك Sarawak وهى الدراسات التى استخدم فيها بنجاح بعض التكنيكات الأساسية فى الدراسات الأنثروبولوجية الحلقية الحديثة ومن بينها الطريقة الجينالوجية المستخدمة فى دراسة الأنساب وتتبعها .

وبالرغم من أن هذه البعثة شارك فيها عدد من العلماء من أمثال ريفرز وسلجمان وسيدنى راى وغيرهم فقد ارتبطت أساساً باسم هادون الذى أشرف على تنظيمها وترأسها وقد عرفت جامعة كامبريدج والكلية التى تخرج فيها (كريست كوليج) فضل هادون وما قدمه للأنثروبولوجيا من خدمات ففتحت كامبريدج قاعاتها لمحاضراته ومنحته كليته زمالتها فى عام ١٩٠١ وعندما أنشئ مجلس الدراسات الأنثروبولوجيا فى كامبريدج عام ١٩٠٤ أصبح هادون فى الفترة من ١٩٠٦ إلى عام ١٩٢٦ قارئاً متفرغاً للدراسات الأثولوجية .

وقد يكون من الصعب حقيقة التعرض هنا لمؤلفاته وكتاباتاته التى تجاوزت الستمائة والتي تمتلئ بكم هائل من المعلومات والمادة الاثنوجرافية التى نجح فى جمعها من الشعوب البدائية متأثراً فى ذلك بكتابات وبمنهجية أدولف باستيمان الذى كان يطلق تسمية الشعوب الطبيعية فى مقابل الشعوب المتمدينة أو المثقفة وينادى بضرورة جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات حتى يمكن تسجيلها قبل اندثارها .

وقد ظهر كتابه «التطور فى الفن» Evolution in Art (١٨٩٥) و«صائدو الرؤوس البيض والسود والقمحية» Head Hunters, Black, White and Brown

(١٩٠١) و«غرائب الشعوب» Wanderings of Peoples (١٩١١) و«نحن الأوربيين»
We Europeans الذى قدمه مع السير جوليان سوريل هكسلى Huxley . أما
مؤلفاته الأكثر حداثة فتشتمل على «تاريخ الأنثروبولوجيا» History of Anthro-
pology الذى ظهر فى عام ١٩٣٤ ويعتبر من أكثر كتبه المتخصصة دقة ووضوحًا .
ومن قبله بعشر سنوات كتابه «أجناس البشر وتوزعاتهم» The Races of Man and
Their Distribution (١٩٢٤) معتمدا فى تناوله على الاتجاه التطورى الذى يفسر
الانتقال من البسيط إلى المركب ومن الأدنى إلى الأعلى والأرقى .

★ ★ ★

مؤرخ أنثروبولوجى ورائد من رواد النظرية الحديثة اكتسب شهرته نتيجة لأعماله ودراساته الميدانية التى أجراها فى جزر باهيا Bahia وبعض الأقاليم البرازيلية الأخرى وأيضاً فى موزامبيق Mozambique وكان لمادته الاثنوجرافية التى جمعها عن صور وأشكال المواد الثقافية أكبر الأثر فى مفهوم الثقافة بوجه خاص.

وقد ولد هاريس عام ١٩٢٧ ونال درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٣ حيث قام بتدريس الأنثروبولوجيا وعمل مستشاراً فنياً للحكومة البرازيلية بوزارة التربية والتعليم . وإن كانت أعماله وكتابه قد أثارت الكثير من الجدل العلمى الذى ما زالت أصداؤه تتردد حتى الآن نتيجة لموقفه الخاص من العلوم الاجتماعية التى كان ينظر إلى وظيفتها نظرة أشبه بعملية التكيف Adaption التى توجد فى العالم العضوي وهى نظرة قادته إلى القيام بالعديد من الدراسات المقارنة فى الثقافات البدائية وفى الاقتصاديات الأوربية فى العصور الوسطى حيث كشف عن وجود نمطين متميزين هما نظام الإقطاع Feudalism ونظام العمل اليدوى الذى تلعب فيه الملكية دوراً كبيراً وهما نمطان ذهب إلى أن اقتصادياتهما لم تكن تختلف كثيراً عن الاقتصاديات التى تسود المناطق الحالية.

ومن ناحية أخرى فقد اهتم أيضاً بدراسة عوامل الهجرة الثقافية والسياسية الأمر الذى أثار بدوره مناقشات طويلة خاصة بالنتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسات والتي اعتمد فيها على المنهج العلمى الجديد Ethnoscintific على النحو الذى ظهر فى دراسة له أجراها فى التونجا Thonga فى موزمبيق التى تعرض فيها لنظم العمل ونظام السُّخرة ونظام الأجور التى يجرى ممارستها على الموظفين وغيرهم من العاملين. وهو ما عبر عنه فى عدد من كتبه ومؤلفاته التى ما زالت تلقى الكثير من التقدير إلى جانب الكثير أيضاً من الانتقاد والمعارضة.

ويعتبر كتابه «ظهور النظرية الأنثروبولوجية» The Rise of Anthropological Theory (١٩٦٨) فى مقدمة كتاباته التى تناول فيها مفهومه لعلم الاجتماع وللنظرية الأنثروبولوجية بوجه خاص من خلال استعراضه ومناقشته لمختلف المراحل التى تطور

العلم من خلالها ارتباطا بأسماء عدد كبير من الآباء المؤسسين الأوائل. وإن كانت فترة السبعينيات قد شهدت له أيضا بعض الكتب الهامة من بينها كتاب «الثقافة والناس والطبيعة» Culture, People and Nature (١٩٧٥) وكذلك كتابه المعنون «الكانيبالزم والملوك: أصول الثقافات» Cannibals and Kings: The Origins of Cultural (١٩٧٧) ثم كتابه «المواد الثقافية : النضال لأجل علم للثقافة» Cultural Materialism: The Struggle for a Science of Culture (١٩٧٩) ثم كتابه الذي يعتبر من وجهة نظر الكثيرين أهم كتبه وأكثرها وضوحًا واعتمادًا على المادة الهائلة التي بين يديه وهو «الأنثروبولوجيا الثقافية» Cultural Anthropology (١٩٨٣) وهو من أمهات الكتب التي ما زالت تلقى رواجًا إلى اليوم خاصة وأنه في هذا الكتاب قد عاد ينظر بشيء من الحرص الذي لا يخلو من النقد إلى «المنهج العلمي الجديد» الذي يهدف أساسًا إلى فهم الجوانب المكونة لثقافات الشعوب كما تتصور الشعوب نفسها هذه الجوانب. وبالرغم من أن هذا يبدو صحيحًا في مجمله فإن ما انتقده هو ما يزعمه المنهج من تأكيد على القواعد والأنماط الثقافية الأمر الذي رأى أنه يبعد الانتباه عن العملية الأكثر أهمية وهي العملية التي تطور الشعوب بها هذه القواعد والأنماط والأحكام الثقافية بطرائق بديلة تساعد على التكيف مع الظروف المتغيرة. إضافة إلى الطابع المثالي الذي ينطوي هذا المنهج عليه خاصة وهو يدعى أن الأنثروبولوجي يرى الثقافة بنفس المنظور الذي يراها به المجتمع وهذه مسألة يصعب تحقيقها واقعيًا .

★ ★ ★

يعتبر هرسكوفيتز رائدا لدراسات الأفريقية في أمريكا إذ انصب اهتمامه على دراسة أكثر نواحي الحياة حيوية في القارة وبخاصة قضايا الفن والتغير الثقافي والعقيدة ومن هنا فيمكن القول بأن جانبا كبيرا من الفضل إنما يرجع إليه في فتح آفاق أوسع أمام الدراسات الأنثروبولوجية التي أخذت تهتم اهتماما خاصا بدراسة الزوج والنيجرو كمجال جديد للبحث الأنثروبولوجي، علاوة على شهرته الرائدة كعالم إنساني النزعة يتميز بنظرة خاصة للثقافة الأفريقية أقامها في ضوء مبدأ النسبية الثقافية التي كانت بمثابة نقد للحتمية الأنثروبولوجية البريطانية نظرا لما لها من ملامح تمثلت في التركيز على التنوع الثقافي وإبراز الذاتية بدلا من الأمبريقية البسيطة ، ورفض فكرة تدنى الشعوب غير الغربية والاهتمام بإبراز البعد الإنساني في ممارسة البحث والعمل الأنثروبولوجي وكلها ساعدت على بلورة النظرية النقدية في الأنثروبولوجيا على ما أكدته دراساته وبحوثه التي أجراها في جزر الكاريبي وهايتي وترينيداد وغينيا الهولندية والبرازيل في إطار الظروف المختلفة التي يعيشها الأفارقة في هذه المناطق.

ولقد ولد هرسكوفيتز في بل فوتين Belle Fountaine بولاية أوهايو عام ١٨٩٥ ونال درجته الجامعية الأولى من جامعة شيكاغو (١٩٢٠) ودرجة الماجستير ثم الدكتوراه (١٩٢٣) من جامعة كولومبيا حيث تأثر بالأستاذ فرانز بواس Boas ثم عمل محاضرا في الأنثروبولوجيا في هارفارد قبلما يذهب في ١٩٢٧ إلى جامعة نورث وسترن حيث ظل يعمل حتى وفاته عام ١٩٦٣ بعد أن شغل أول كرسي للدراسات الأفريقية في الولايات المتحدة عام ١٩٦١. كذلك فقد عمل مديرا لبرنامج الدراسات الأفريقية بجامعة نورث وسترن كما كان رئيسا لجمعية الفولكلور الأمريكية ومحررا لمجلة American Anthropologist .

ولقد كتب هرسكوفيتز عددا كبيرا من الكتب والمؤلفات بخلاف مقالاته في شتى موضوعات الثقافة الأفريقية. وفي معظم هذه الكتابات هاجم هجوما عنيفا الكثير من الرؤى والمواقف التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن العشرين عن الثقافة الأفريقية والأصول التاريخية للأفارقة . ومن بين هذه الكتابات «اسطورة

ماضى الزنوج» The Myth of Negro Past (١٩٤١) عارض فيه بشدة الفرضية القائلة بأن أفريقيا لا بد وأن تتبع النموذج الغربي وأن تبقى تحت الوصاية المباشرة للآخرين مؤكداً بذلك الشخصية المستقرة للثقافة الأفريقية من ناحية وإمكانات التغير الاجتماعى والثقافى على أيدي الأفارقة أنفسهم من ناحية ثانية حيث اهتم بإبراز الخصائص المكتسبة والفطرية فى الثقافة وتطورها اعتماداً على التجارب الذاتية للشعوب ومنتهاها إلى أن الاختلافات فى تطور الشعوب الثقافى كما فى الأفراد يلعب الاكتساب فيها دوراً متعاضداً .

كذلك ظهرت اهتمامات هيرسكوفيتز باقتصاديات القارة حيث أصدر Man and His Work (١٩٤٨) و«الحياة الاقتصادية للشعوب البدائية» The Economic Life of Primitive Peoples (١٩٤٠) وهو محاولة لصياغة المبادئ الأساسية للأنثروبولوجيا الاقتصادية بالإضافة إلى «الأنثروبولوجيا الثقافية» (١٩٥٥) و«العامل البشرى فى أفريقيا المتغيرة» The Human Factor in Changing Africa (١٩٦٢).



على الرغم من أن القانون كان دائما موضع اهتمام من الأنثروبولوجيين فقد ظلت الأنثروبولوجيا القانونية تعاني لوقت طويل من عيب بارز هو عدم تحررها من القوالب والمصطلحات الفنية التي تمتلئ بها صفحات كتب القانون والفقهاء القانوني المتخصصة.

ولهذا فإن هويل وهو من أغزر الكتاب الذين كتبوا في مختلف الدوريات والمجلات الأنثروبولوجية والقانونية يعتبر نقطة تحول رئيسية في هذا المزاج المسيطر بمحاولته تعديل معالجة الأنثروبولوجيا للقانون فبدلا من الطريقة التي دأبوا عليها في دراستهم لقوانين المجتمعات البسيطة من زاوية الفقيه أو المحامي القانوني تغير الحال إلى الاعتماد على النظرة الواقعية للأفراد المحليين من أعضاء الجماعة أو المجتمع البسيط الذي تتم دراسته. وهذه نقلة هامة إذ يبدأ الأنثروبولوجي بمشاهدة وتحليل الأفعال والتصرفات الاجتماعية ويسعى من خلالها إلى تحديد شكل ونوع القانون ضمن ما تعيش الجماعة (المجتمع) في ظلها من قوانين وأعراف وهذا في الحقيقة انعكاس لتأثره بروسكو باوند الذي يعتبر من أقطاب الاتجاه الواقعي في دراسة القانون إذ يتفق معه في تعريفه للقانون ومن حيث إنه يوجد أيضا في كل المجتمعات بصرف النظر عن بدائيتها .

وليس من شك في أن تكوينه العلمي هو الذي ساعد هويل علي تبوأ هذه المكانة التي يحتلها في ميدان الأنثروبولوجيا القانونية فقد حصل على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة كولومبيا وعمل أستاذا للأنثروبولوجيا في جامعة مينسوتا وكذلك مركز دراسات إيست وسترن كما كان زميلا بمركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية بالإضافة إلى أنه قد تمتع بعضوية مجلس تحرير مجلة «القانون والمجتمع Law and Society ومحوررا في مجلة National Law Form».

ولقد أقام هويل تمييزا فاصلا بين القانون وبين العرف اتساقا في الحقيقة مع اتجاهه الواقعي إذ رأى أن هناك ثلاثة عناصر أساسية في القانون تميزه عن قواعد العرف وهي القوة أو القسر، والسلطة الرسمية والقياسية. أما بالنسبة إلى

المجتمع البدائي (الذي استأثر بمعظم اهتمامه) فيعتبر العرف الوجه التقنيني للتقاليد والعادات الجمعية والآداب العامة بل ويرتبط ارتباطا وثيقا بالعديد من الإجراءات الدينية والطقوس السرية والمبادئ الأخلاقية مما يجعل منه وسيلة فذة للضبط الاجتماعي.

ولقد كتب هويل عددا هائلا من الكتب والمؤلفات لعل من أشهرها كتابه المعنون «الإنسان في العالم البدائي» Man in Primitive World (١٩٤٩) وكتابه «قانون الإنسان البدائي» The Law of Primitive Man (١٩٥٤) وكتابه الذي قدمه في عام ١٩٦١ بالاشتراك مع جلوكمان بعنوان «تعليق : دور الملك في العملية القضائية في باروتسو» Comment: The Role of the king in the Barotse Judicial Process. بالإضافة إلى كتابه الهام الذي ألفه بالاشتراك مع ليولن Cheyenn Way في عام ١٩٤١ الذي وضع فيه دور الجماعات الخاصة في القانون مما تتوجب معه دراسة القانون في داخل الجماعة ذاتها . ولحق فإن هذا الكتاب يعتبر من وجهة نظر كثير من العلماء والباحثين أهم إنجازاته النظرية الحديثة في الأنثروبولوجيا القانونية إذ تغلّى فيه عن المداخل التقليدية في دراسة القانون البدائي. وحيث اهتم بإبراز الاختلافات بين الجزاءات القانونية والجزاءات الأخلاقية في المجتمعات البدائية . فالقانون هنا (له أسنان تعض) بحسب قوله ويعتبر هذا الكتاب - بالرغم من الكم الهائل من الدراسات التي أجريت في المجتمعات البسيطة والقبلية - من أضخم الإنجازات في الميدان وما زال الكثيرون ينظرون إليه على أنه أنموذج يحتذى به في ميدان البحث لما يفتوى عليه من مواقف ورؤى جديدة كان لها أبعاد الأثر في التغلّى عن الدراسات الفقهية مما أفسح المجال أمام العديد من الدراسات النظرية والأثنوجرافية في مناطق أخرى جديدة لتشكل في مجموعها التراث الأنثروبولوجي الذي يهتم ويبحث مشكلات القانون البدائي وتطوره.

★ ★ ★

مؤرخ أمريكي اكتسبت كتبه ومؤلفاته الشعبية في مختلف المجالات والاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية شهرة ذائعة حيث فاز مرتين بجائزة بوليتزر Pulitzer العالمية. ولقد ولد هوفستادر في عام ١٩١٦ في بافالو Buffalo في نيويورك وحصل على درجة الماجستير من جامعة كولومبيا عام ١٩٣٨ ثم الدكتوراه عام ١٩٤٢ وبعدها قام بالتدريس في جامعة ميريلاند في الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٦ ليعود بعدها للتدريس في كولومبيا من ١٩٤٦ إلى ١٩٧٠ حيث قضى بقية أيامه إلى أن توفى في شهر أكتوبر من العام نفسه وهو لم يزل في الرابعة والخمسين من عمره.

ولا شك في أن هوفستادر كان أحد المثقفين القلائل الذين نجحوا في أن يحددوا منذ بداية حياتهم العملية مسار فكرهم بوضوح كبير منطلقا من مشاركته الإيجابية في المناقشات التي يثيرها التفسير التاريخي التي احتدمت في الولايات المتحدة الأمريكية منذ أربعينيات القرن الماضي خاصة فيما يتعلق بأصول الرأسمالية الحديثة التي رأى أنها بدأت بكارل ماركس وتعرضت لمراجعات ماكس فيبر للتفسير الماركسي وهي مناقشات شارك فيها عدد كبير من علماء الاجتماع والمؤرخين

ومنذ البداية تميزت مناقشاته وكتاباته التي قلنا إنها ذائعة الانتشار والرواج بمزية أساسية كانت بمثابة الأساس النظري والمنهجي لكل مواقفه ورؤاه التي سعى بها للتعبير عن تفسيره الخاص لتاريخ أمريكا مستخدما في ذلك الفكر السوسيولوجي والمقولات والتصورات السوسيولوجية بصفة أساسية الأمر الذي انعكسه بشكل جلي كل كتاباته. ففي عام ١٩٤٥ ظهر كتابه «الدارونية الاجتماعية في التفكير الأمريكي» Social Darwinism in American Thought حيث استعرض مراحل تطور السبنسرية على مدى التاريخ إلى أن صار تأثير هيربرت سبنسر في أمريكا أكبر منه حتى في إنجلترا. ومع أن هذا الكتاب كان يحمل في طياته نقدا مميذا لنظرية التطور الاجتماعي لهربرت سبنسر فإنه ينتهي إلى تقرير مكانتها في

المجتمع الأمريكي لدرجة قال معها : «إنه على مدى العقود الثلاثة منذ الحرب الأهلية كان من المستحيل أن يكون المرء فعالا أو نشطا فى أى مجال من المجالات الثقافية دون أن يكون مسيطرا تماما وعلى وعى كبير بالسببسية» وهو قول ربما أصدقته إلى حد بعيد عملية الإحياء لسببسر التى انبعثت بعد ذلك على أيدي تالكوت بارسونز بصفة خاصة.

وبعد هذا التاريخ توالى كتب ومؤلفات هوفستاد من بين أهمها «التقليد السياسى الأمريكى» The American Political Tradition (١٩٤٨) و«عصر الإصلاح» The Age of Reform (١٩٥٥) (هذا الكتاب نال جائزة بوليتزر عام ١٩٥٦) الذى ضمنه أفكاره عن الوضعية التى وصل إليها الفكر الاجتماعى والاقتصادى الأمريكى وهى وضعية وصفها بأنها مهددة للكيان الأمريكى نفسه خاصة مع حدوث الكساد العالمى سنة ١٩٢٨. وكذلك كتاب «أسلوب السياسة الأمريكية» (١٩٥٩) و«فكرة النظام الحزبى» The Idea of a Party System (١٩٦٩) ثم «العنف الأمريكى» The American Violence (١٩٧٠) .

ومع ذلك يظل مؤلفه «النزعة ضد الثقافة فى الحياة الأمريكية» Anti - In- tellectualism in American Life الذى صدر فى ١٩٦٣ أهم مؤلفاته وأكثرها إثارة للجدل والنقاش (نال هذا الكتاب جائزة بوليتزر للمرة الثانية) وهو يؤكد أن مظاهر الإثارة والشعارات والإفراط فى الديمقراطية الجاكسونية Jacksonian قد ولدت فى حياة الشعب الأمريكى السياسية الكثير من مظاهر الحقد والكراهية نحو المثقفين الذين أصبحوا ينظر إليهم على أنهم ممثلون لحياة الصفوة المغترية.

وفى هذا الكتاب مضى هوفستاد يتحدث عن العديد من الأمثلة على مظاهر الاعتداء والمعارضة للحياة الثقافية والعقلية التى تراكمت فى حمى المكارثية Mc Carthyism التى اندلعت فى إبان الخمسينيات وكلها أمثلة يصعب مقارنتها بأية وضعية فى أى بلد أوربى أو حتى كندا مما يجعل لهذه النزعة طابعا مميزا. وربما كان هذا الإدراك الواعى هو ما حفزه إلى الإعلان عن رأيه القائل بأن «الحياة الأمريكية الهشة والتى لا جذور لها أو انسجام فيها .. وزحفها الغريب إلى المركز بحثا عن الأمان والهوية قد أفسح الطريق أمام ظهور نوع من السياسة التى تميل

إلى التعبير عن نفسها بأسلوب «بارانودي» نكتفي به بمجرد اجترار الذكريات ومظاهر البحث عن كبش فداء أكثر منه تقديم المقترحات والمشروعات لأجل العمل والتغيير الإيجابي.

★ ★ ★

يعتبر جورج كاسبر هومانز أحد قادة علماء الاجتماع الأمريكيين خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي الذين أسهموا إسهاما كبيرا في تطوير النظرية الاجتماعية وفي ترسيخ نظرية التفاعل التي نجحت تصوراتها في إلقاء كثير من الضوء على فهم السلوك الدافعي في التنظيمات الصناعية والجماعات الصغيرة على وجه الخصوص وكان هذا بمثابة دفعة قوية لعلم اجتماع التنظيم والاجتماع الصناعي على السواء وبخاصة على النحو الذي نجده في كتاباته الأساسية «الجماعة الإنسانية» The Human Group (١٩٥٠) واعتمد في هذا الكتاب على نتائج خمسة بحوث شهيرة سابقة و«السلوك الاجتماعي: أشكاله الأولية» Social Behaviour Its Elementary forms (١٩٦١) وهما الكتابان اللذان أكد فيهما على أهمية التفاعل بين الأفراد والجماعات كأساس لنمو النظم الاجتماعية وتطورها وهو ما يختلف على أية حال عما ذهب إليه تولكوت بارسونز الذي اعتبر النظم أساسا للتفاعل.

ويبدأ هومانز من قضية رئيسية هي أن الجماعة الصغيرة التي تعتبر من وجهة نظره ركيزة علم الاجتماع هي نسق له مقوماته وجوانبه الداخلية والخارجية. ولكن مفهوم النسق لما كان يعتبر أساسا للنظرية العلمية فيكون معنى هذا ارتباط علم الاجتماع نظريا بمختلف العلوم النظرية الأخرى بصرف النظر عن قدمها أو حداثها. ومن ثم فتكون مهمة العلم هي إذن دراسة سلوك الجماعة عن طريق تحليله إلى عناصره ومكوناته الأساسية واكتشاف العلاقات المتبادلة فيما بينها ومظاهر الاعتماد المتبادل القائم بينها جميعها. على حين سعى في الكتاب الثاني إلى تحليل السلوك الاجتماعي من خلال ثلاثة مفاهيم أساسية هي التفاعل Inter-action والعواطف Sentiments والأنشطة Activity حيث تشير إلى التساند المتبادل بين مظاهر الفعل والسلوك. وإن كان اختياره لهذه المفاهيم الثلاثة مما يمكن اعتباره رد فعل لكتابات اليوت شابل Chapple وكونراد آرنسبرج Arensberg (١٩٤٠) على وجه الخصوص وإن كان هذا بدوره لا يخفى تأثره بعالم النفس سكينر Skinner

رغم أنه أطلق عليها مسميات جديدة فمصطلح النشاط عنده هو نفسه مصطلح السلوك الفعال الذي استخدمه سكينر.

إلا أن هومانز له موقف خاص من النظريات الاجتماعية فهو يرى أن معظم ما يطلق عليها نظريات علم الاجتماع الحديثة مما تتضمن كل المميزات الممكنة ولكن ينقصها التفسير ومن بين أسباب هذه المشكلة أن معظم هذه النظريات تتكون من مجموعات من الفئات أو الوحدات التي يصنف إليها عالم الاجتماع جوانب السلوك المختلفة الأمر الذي يتم في أحيان كثيرة بطريقة عشوائية مما يعزوه أيضا إلى فقدان كثير من العلماء للحس الاجتماعي الذي يلهم الباحث ويرشد خطواته. وهذه ناحية يظهر فيها مدى تأثره بمالينوفسكي وبحسه الفائق الذي لم يحاول أخفائه أبدا.

ومن الناحية الأخرى اهتم هومانز أيضا بإبراز أوجه الاختلاف بين الاتجاهات الأمبريقية والعقلانية في دراسة المجتمع فوجه انتقاداته للدارسين بسبب استخدامهم المفاهيم الكلية والمصطلحات المفضضة ويعطى أمثلة لذلك مفهوم الروح الرأسالية عند فيبر ومفهوم البناء العلوى والبناء التحتى عند ماركس ومثلهما مفهوم فائض القيمة وكلها من نوع المفاهيم الوصفية على حين يطلق على المفاهيم الأمبريقية وصف المفاهيم العلمية أو الواقعية.

وكما أن هومانز لم يخف إعجابه بمالينوفسكى فقد تأثر أيضا بفلفريديو باريتو Pareto فكان موضوعا لواحد من كتبه «مقدمة (مدخل) لباريتو» - An Intro- duction to Pareto (١٩٢٤) ألفه بالاشتراك مع كورتيس Curtis وكان يدور حول علم الاجتماع في محاولة لتنظيم الأفكار المشوشة التي يمتلئ بها العلم. وإن كان مما أخذه على باريتو عدم الاهتمام بالبناء وتركيزه على الوظيفة في الوقت الذي كان يشك كثيرا في جدوى مفهوم التوازن Equilibrium في شرح وتفسير الظاهرة الاجتماعية وربما كان الأجدى الاهتمام بالتوازن العملى وديناميات الجماعة باعتبار أن الجماعة الإنسانية خطة تصورية لدراسة التنظيم الاجتماعي اعتمادا على نتائج ما تم اجراؤه من بحوث.

★ ★ ★

الفيلسوف وعالم الاجتماع والتربوي الأمريكى سيدنى هوك من بين جيل المثقفين الأمريكان الذين جذبهم بريق الماركسية وبخاصة فى كتاب «من هيجل إلى ماركس» From Hegel to Marx ولهذا فلا يبدو غريبا أن يقدم على تحليل للماركسية حيث وقف موقفا مناهضا لكل صور الحكم الفردى والشمولى متخذا من الديمقراطية الليبرالية نموذجا للبناء السياسى اللازم لأى تطوير اجتماعى وعلمى فعال.

ولقد ولد سيدنى هوك فى ديسمبر عام ١٩٠٢ بمدينة نيويورك وبعد أن حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩٢٧) بإشراف جون ديوى Dewey قام بالتدريس فى جامعة نيويورك (١٩٢٧ - ١٩٧٢) وما أن تقاعد حتى شغل منصب مستشارا للبحوث فى جامعة ستانفورد وباعتباره أحد مؤيدى البراجماتية والفكر البراجماتى فقد تبنى فلسفة عامة فى تطوير الشخصية الإنسانية وهو ما انعكس فى كتاباته ومؤلفاته التى بلغ عددها أكثر من ٢٥ كتابا من بينها «نحو فهم كارل ماركس : تفسير ثورى» Towards The Understanding of Karl Marx: A Revolution Interpretation (١٩٢٣) وكتاب «البطل فى التاريخ» The Hero in Education for Modern History (١٩٤٣) وكتاب «التربية لأجل الإنسان الحديث» Education for Modern Man (١٩٤٦) و«فى الدفاع عن الحرية الأكاديمية» In Defence of Academic Freedom (١٩٧١) وفى العام نفسه كتابه عن ديوى "جون ديوى : بورتريه لمثقف" John Dewey: An Intellectual Portrait ثم كتابه «الثورة والإصلاح والعدالة الاجتماعية» Revolution, Reform and Social Justice (١٩٧٦).

وباعتباره واحدا من أهم شراح الماركسية فقد ذهب إلى أن المادية التاريخية التى أعلنها ماركس ليست سوى ضرب من التفكير اليوتوبى فهو لم يرجع ظواهر الدين والفلسفة إلى مجرد الأصول الاقتصادية كما لم يرددها إلى أصول أو مصادر مادية وإنما ماركس كشف فحسب عن (الزاوية) الاقتصادية التى تصوغ ظواهر الفكر السياسى والقانونى والتى تفسر ظهورها أو اندحارها . وعلى الرغم من أنه لم يربط

النظرية الماركسية بالظروف الخاصة بالمجتمع الأمريكى أو بتقاليد الفكر الاجتماعى الأمريكى نظرا لأن الحركات السياسية كانت أكثر ارتباطا واهتماما بفكر جون ستراتشى Strachey وبخاصة فى كتابه The Coming Struggle for Power الذى كان له تأثير واضح فقد كانت الأوساط الأكاديمية تستعمل كتاباته كمرجع أساسى لتثنية المثقفين وتوجيههم لما ينبغى أن يكون عليه التعليم الاجتماعى العالى مما جعل الماركسية تظل فى الولايات المتحدة مشوبة دائما بصيغة من التشوش والغموض.

★ ★ ★

ربما كان الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني هوركهايمر أهم رموز مدرسة فرانكفورت التي ترجع إليها أصول النظرية النقدية التي استمدت الكثير من مقوماتها من الفلسفة الهيجيلية والفلسفة الماركسية بوجه خاص وذلك إلى جانب زملائه أعلام هذه المدرسة وفي مقدمتهم أدورنو وهربرت ماركيوزة وليو لوينثال وإيريك فروم إضافة إلى هابرماس وجورج لوكاتش وغيرهم ممن التقى بهم في منفاهم الاختياري بالولايات المتحدة وممن اعتقدوا بأن وظيفة العلوم الاجتماعية هي التحليل النقدي الملتزم للمجتمع والأيديولوجيا.

ولقد تأسست مدرسة فرانكفورت عام ١٩٢٣ كمركز متخصص في الأبحاث الماركسية ومنذ البداية غلبت عليه نزعة تشاؤمية واتخذ موقفا نقديا من الماركسية الأرثوذكسية ولهذا فعندما بدأ معهد البحث الاجتماعي Institute for Social Research في العمل توجه معظم عمله إلى البحث الأمبريقي والبحث النظري في خطة لارتياح الجوانب الجوهرية في المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية وخاصة منذ عام ١٩٣٠ عندما عين مديرا لهذا المعهد. ففي أثناء رئاسته للمعهد واستمرار هذه الرئاسة حتى وهو في المنفى في فرنسا وأمريكا ثم بعد ذلك بعد عام ١٩٣٣ حدث تغير في اتجاهات المعهد وتوجهاته إذ ظهر اهتمامه وشاركه هذا الاهتمام أدورنو وماركيوزة في الحقيقة بتطور المادية التاريخية التي أخذ البحث النظري يوليها اهتماما خاصا الأمر الذي كان بداية لبورة برنامجه أو مشروعه الضخم لما يمكن أن يطلق عليه النظرية الاجتماعية النقدية Critical Social Theory وهي تسمية أطلقها مقابل ما ذهب إليه ماركس في نظريته في نقد الاقتصاد السياسي Critique of political Economy ولتعمل بالطريقة ذاتها التي وصف بها لوكاتش الوعي الطبقي للبروليتاريا .

والواقع أنه بالطريقة نفسها التي قابل (عارض) بها الفكر البرجوازي بفكر الطبقة العاملة كذلك بالنسبة لهوركهايمر الذي يرجع إليه فضل سك مصطلح «النظرية النقدية» وهو يقابل هذه النظرية بالشرطية التقليدية Traditional .

فالنظرية التقليدية يراها هوركهايمر نظرية تأملية تساعد كثيرا فى عملية إعادة الإنتاج الاجتماعى فى إطار من تقسيم العمل ونظام المصنع البرجوازى بينما النظرية النقدية مهمتها الرئيسية أن تعمل خارج نطاق المجتمع البرجوازى وخارج المحددات القاسية التى يفرضها هذا المجتمع والتعبير باستمرار عن موقف نقدى للأنساق والمجتمعات الرأسمالية وهادفة بهذا الإدراك إلى أن تضع متناقضات هذه المجتمعات البرجوازية فى مستوى الوعى والشعوب. وهذا بالضبط ما سعى إلى توضيحه فى مقاله الشهيرة التى نشرها تحت عنوان «النظرية التقليدية والنظرية النقدية» Traditional and Critical Theory (١٩٢٧) حيث تناول بالشرح والتوضيح مدخله النقدي وطبيعة العلاقة بين النظرية والتطبيق وهى مقالة كان لها على أية حال أثر كبير ليس فى وقت ظهورها فحسب ولكن أيضا عندما عاد هذا الأثر إلى الظهور بعد ذلك بحوالى ثلاثة عقود فى أواخر الستينيات عندما أصبح الموضوع مثار جدل كبير بين حركة الطلاب والجيل الأكبر من مدرسة فرانكفورت وكان ذلك من بين الأسباب الرئيسية فى ذىوع فكر هابرماس وشهرته.

وباستثناء كتبه القليلة (إذا ما قورنت بغيره من العلماء) سواء تلك التى ألفها بمفرده أو بالاشتراك مع غيره فإن المقالات (الكثيرة) والموضوعات التى نشرها فى منتصف الثلاثينيات على شكل سلاسل استطاع أن يضمنها بنجاح بعض الأفكار الرئيسية الرائدة لمدرسة فرانكفورت وبخاصة المفهومات والتصورات التى عبر بها عن مضامين النظرية النقدية. أضف إلى ذلك عاملين آخرين كانا وراء انتشار أفكاره الأول أن إقامته فى كاليفورنيا كانت ملتقى لكثير من المثقفين الألمان حيث تخضع للحوار والنقاش مختلف القضايا والرؤى والمواقف والثانى أنه عندما كان فى نيويورك فقد أشرف على تحرير مجلة «دراسات فى الفلسفة والعلم الاجتماعى» التى كان يصدرها أثناء وجوده فى الولايات المتحدة.

ولكن بعد انتهاء الحرب توجه مشروعه وجهة سياسية واضحة وبخاصة بعدما أعاد تنظيم معهد البحث الاجتماعى فانشغل لفترة طويلة فى مشروع مشترك مع أدورنوهو «جدل التنوير» Dialektik der Aufklärung الذى ظهر فى عام ١٩٤٧. وفى الوقت نفسه أخذ يركز كل اهتمامه فى دراساته عن التحامل والتمييز العنصرى التى شارك بعض أعضاء مدرسة فرانكفورت فى بعض مجلداتها، وهذا بخلاف إشرافه

على إحدى الدراسات الرائدة عن السلطة وعلاقتها في الأسرة «وظهرت تحت عنوان» Studieu über Autoritat und Familie وتأثرت بها تأثراً شديداً ميراكوماروفسكى Komarovsky في دراستها التي أجرتها عام ١٩٤٠ عن مركز الرجل العاقل والمنتزن في الأسرة وما إذا كانت بطالته وعدم انشغاله يؤثران في سلطته أو يفقدانه هذه السلطة.

★ ★ ★

من أهم العلماء الذين هاجموا الوضعية الراهنة للاتجاهات الأمبريقية التي جعلت علم الاجتماع يسير - كما يقول - فى طريق مسدود حيث أدت هذه الاتجاهات إلى تجميع كثير من المعارف والمعلومات عن موضوعات قليلة الأهمية تاركين المشكلات الحقيقية التي تواجه المجتمع الإنسانى بعيدة عن الاهتمام . كما ربط بين ظهور الاتجاه الأمبريقى وبين مختلف الانتقادات التي وجهت إلى المذهب التاريخى Historicism الذى يعتمد على النظرة الكلية والشاملة فى تفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية وفى تفهم أحداث التاريخ بالاعتماد على دعاوى غير قابلة للاختبار والتحقق الأمبريقى.

مدخله هو إذن مدخل نقدي بالدرجة الأولى يسعى أساسا إلى بناء علم اجتماع هادف جديد يكون شغله الشاغل الاهتمام بالبحث فى المشكلات الكبرى كمشكلات الصراع وحل الصراع والتصورات المرتبطة بذلك باعتباره فى أعماق الواقع الاجتماعى بالإضافة إلى تلك المشكلات المتعلقة بالثورة ضد الفقر وضد التفرة العنصرية وضد التحامل ضد السود علاوة على كافة المشكلات الناجمة عن التصنيع وآثار الخطوات التكنولوجية الهائلة التي فى المجتمعات المتقدمة.

وتعتبر فترة عمله كأستاذ علم الاجتماع بجامعة روتجرز Rutgers منذ أربعينيات القرن الماضى وحتى أواخر الستينيات من أخصب الفترات التي وضح خلالها اهتمامه الكبير بالمنهج وماهيته وبالنظرية وبنائها وكيفية صياغتها وما يرتبط بذلك من قضايا ومشكلات تتعلق بالنظرية والبحث التطبيقى وكان السؤال الأساسى الذى طالما شغل باله يدور عن نوعية التطبيق ونوعية الأهداف التي يرمى إلى تحقيقها وتحت أية ظروف. وفى تصوره أن الإجابة على هذا التساؤل مما يستدعى توفير أكبر قدر من الحرية التي يجب منحها للباحثين بعيدا عن أى تدخل يعوق حرية الفكر والبحث. وربما نرولا على مثل هذه التصورات أمكنه أن يشارك بنجاح فى بعض المجالات والدوريات العلمية إذ شارك فى تحرير Trans-Action Magazine وهى مجلة نقدية فى العلوم الاجتماعية تسعى إلى بناء علم اجتماع

هادف مع نخبة من العلماء وفي مقدمتهم ألفين جولدنر Gouldner ولى رينووتر Rainwater وليونارد زفيج Zweig ونيلسون آلدرىخ Aldrich .

وفي اعتقاد هوروفيتز أن أى جهد فى علم الاجتماع لابد أن يبدأ من مشكلة تكون جديرة بالبحث والدراسة والاهتمام وحيث يسعى الباحث إلى الكشف عن المتغيرات المرتبطة بالمشكلة على المستويات الاجتماعية المختلفة مع مراعاة العوامل السيكولوجية التى لا يمكن إغفالها تماما وحيث تبرز أهمية توافر المعلومات لأنه بدون المعلومات لا يكون هناك تفسير وإن كان من المهم تصنيف هذه المعلومات بحسب أهميتها وأولوياتها .

والواقع أن هوروفيتز سواء فى تحديد منهجيته أو بلورة مواقفه النظرية قد تأثر كثيرا ببعض كبار العلماء من معاصرين وممن سبقوه فقد تأثر برايت ميلز Mills وصامويل ستوفر Stouffer الأول من حيث خياله الخصب الذى يمثل عالم الاجتماع المبدع ومن حيث أنه يضع الهدف الأخلاقى فى مقدمة الاهتمام الاجتماعى. وبالرغم من أن هوروفيتز لا يعتبر من أنصار الإحصاءات أو الذين توجههم فى بحوثهم إلا أن تأثره بصامويل ستوفر كان أساسيا من حيث الربط بين الاهتمامات الماكروسوسولوجية بمنهجية البحوث الاجتماعية التى تدور حول المشكلات التى لها دلالاتها وذلك فى الوقت الذى تأثر أيضا بكل من هربرت بلومر Blumer وروبرت ليند Lynd وأناطول رابابورت Rapoport ودافيد ريسمان Riesman وهوارد بيكر Becker حيث اهتم بتأثير الأخير بالذات بدراسة العلاقة بين الانحراف الاجتماعى والوضعية السياسية التى تعتبر علاقة أساسية فى الحياة الاجتماعية. أضف إلى ذلك أن كل هؤلاء هم بلا شك ممن يتمتعون بالنزعة العلمية الإنسانية العميقة وبالالتزام الواضح والرؤى المحددة بمعنى أن نظرتهم لعلم الاجتماع كانت بعيدة عن أية نظرة أحادية قاصرة.

وفى ضوء مثل هذه المنهجية التى تهتم اهتماما كبيرا بصياغة الفروض اعتقادا منه بأن أى بحث لا يبدأ بالفروض لن ينتهى إلى أية نظرية إلى جانب اهتمامه بالمنهج والاعتماد على وضوح وتكامل الخطة التى يسير على مقتضاها الباحث دارت معظم كتاباته وبخاصة كتابه «الراديكالية والانقلاب ضد العقل»

Radicalism and the Revolt Against Reason الذي ظهر في الخمسينيات وكتابه الآخر الهام «ثلاثة عوالم نامية Three Worlds of Development (١٩٦٦) وإذا كان قد تناول في الكتاب الأول أحداث التحولات الاشتراكية وبخاصة فيما بين موت ماركس وانجلز ومولد لينين وستالين فقد كرس الكتاب الثاني لبحث مشكلات تحول المجتمع الأمريكي في الستينيات إلى الفردية المفرقة وهو ما عبر عنه بأن النزاع بين الاشتراكية الديمقراطية وبين الاشتراكية الذي وصفه في الكتاب الأول قد عاد إلى الظهور ثانية فيما أطلق عليه السياسات الراديكالية والسياسات التقدمية أو التحريرية حيث يؤثر أى تغير فى أى مكان فى غيره من الأماكن وفى مجرى الأحداث ويضرب مثالا لذلك التغيرات الاجتماعية التى تحدث فى العالم الأول (أمريكا) والعالم الثانى (الاتحاد السوفيتى) وتأثيرها فى العالم الثالث غير الصناعى .

ومهما يكن من أمر ففى نظركه إلى طبيعة التطور الذى حدث فى مجال البحث السوسولوجى يصعب أبعاد تأثيره بكل من ماركس وجميلوفيتش وزيميل وجورج سوريل حيث استمد من كل هؤلاء المادة الخام التى ساعدته فى بناء نظريته فى الصراع وتأكيد له دينامية وعدم استقرار الظاهرة الاجتماعية عموما على ما يظهر فى كتابه «الفلسفة والعلم وعلم اجتماع المعرفة» ١٩٦١ Philosophy, Science and Sociology of Knowledge وكتابه الثانى (أشرف على تحريره) بعنوان «ازدهار وسقوط مشروع كاميلوت» The Rise and Fall of Project Camelot (١٩٦٧) عن قصة الصراع والثورة فى الدول النامية ووضع القادة ودور علماء الاجتماع سواء كباحثين فى قضايا الثورة أو كمستشارين.

★ ★ ★

لا يعتبر عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى ويليام هوايت هاولز عميدا للأنثروبولوجيا الفيزيقية فى أمريكا فحسب ولكنه يحتل مكانة مرموقة كأحد أساطين الأنثروبولوجيا الطبيعية فى العالم كله. فقد تخصص منذ بداية حياته العلمية فى تشييد وبناء العلاقات الإنسانية باستخدام المقاييس الفيزيقية كما اشتهر بأعماله المتنوعة التى استهدفت تطوير الأنثروبولوجيا وتطوير مناهجها وأساليبها لارتياح مجالات جديدة مستعينا فى ذلك بالمناهج الاحصائية والكمية التى ساعدته كثيرا فى صياغة المشكلات المورفولوجية واقتراح الحلول لها الأمر الذى يظهر بوضوح فى استخدامه لمقاييس الأجرام فى الدراسات السكانية على وجه الخصوص.

ولقد ولد هاولز فى عام ١٩٠٨ فى نيويورك وأدت به دراسته فى جامعة هارفارد التى درس فيها على أيدى الأستاذين هوتون Hooton وتوزر Tozzer إلى أن يشغف بالدراسات والبحوث الأنثروبولوجية ولذلك فما أن حصل على درجة الدكتوراه حتى انضم إلى فريق البحوث فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى فى نيويورك ثم انتقل بعد ذلك إلى جامعة ويسكونس التى استمر بها لمدة عشرين عاما وذلك إلى أن تبوأ كرسى الأستاذية فى الأنثروبولوجيا الطبيعية فى هارفارد بعد وفاة هوتون فى عام ١٩٥٤ ومن ثم عمل باحثا وأميناً لمتحف بيبودي Peabody للأثولوجيا الأمريكية التابع لهذه الجامعة بالإضافة إلى توليه رئاسة الرابطة الأمريكية للأنثروبولوجيا ورئاسته أيضا تحرير المجلة الأمريكية للأنثروبولوجيا الفيزيقية .

المشكلة الرئيسية التى شغلت تفكيره دائما كانت الظاهرة الإنسانية بعامة والكيفية التى تطور بها الإنسان على مدى تاريخه الطويل والكيفية التى ظهرت بها حضاراته وثقافته ونظمه الاجتماعية وعاداته وتقاليده وأعرافه. كيف نشأ المجتمع البشرى وماذا عن مراحل تطوره ومظاهر هذا التطور بمعنى آخر؟

وفى محاولته بناء جوانب هذه الملحمة الطويلة كان من الطبيعى أن يظهر بصوة واضحة مدى تأثيره بالأستاذ : أرنست هوتون وهو تأثر من السهل رؤية

ملامحه فى كل كتاباته ومقالاته التى دأب على كتابتها بطريقة مبسطة وبأسلوب سهل وشيق ساعد على ترجمتها على نطاق واسع جعل التخصص العلمى فى متناول يد الجميع.

كتابه الأول صدر فى عام ١٩٤٥ تحت عنوان Mankind So far عبارة عن مزاج من الجوانب العضوية والثقافية فى تطور الإنسان وإن كان أكثر تركيزاً على النواحي الثقافية بخاصة: وأتبع هذا الكتاب بكتاب آخر بعنوان «الإنسان وأديانه» The Heathens: Primitive Man and His Religions (١٩٤٨) ثم بعد ذلك Man Evolution of the «تطور الجنس البشرى» (١٩٦٧) ومن بعده «تطور الجنس البشرى» Genus Homo (١٩٧٣) ويعتبر كتابه الفذ المعنون «ما وراء التاريخ» ربما أروع كتاباته وأكثرها عمقا حيث تناول فيه قصة التطور والدور الذى لعبته اللغة والدين فى بناء الحضارات وفى تكيف الإنسان وبقائه واستمراره على مدى آلاف السنين.

★ ★ ★

عالم أركيولوجى ولفوى ألمانى شهير عرف بدراساته الواسعة عن الخطوط المسمارية الحيثية وفتح بذلك آفاقا واسعة أمام الدراسات المهمة بالتاريخ القديم وبثقافات الشرق الأدنى حيث توالى على مدى العصور العديد من الدول والأمبراطوريات التى كانت لها حضاراتها الزاهرة مثل حضارة بابل وآشور فى بلاد ما بين الرافدين (ميسوبوتاميا) ومن بعدها العيلاميون Elamites والعموريون Amorites والحيثيون Hittites ثم الكاشيون Kassites .

ولد هروزنى فى يوهيميا Bohemia عام ١٨٧٩ وبعدما أكمل تعليمه شارك فى التنقيبات والحفريات التى كانت فلسطين مسرحا لها فى عام ١٩٠٤ وفى العام الذى يليه (١٩٠٥) عين أستاذا فى جامعة فيينا وظل بهذه الجامعة إلى أن عين بجامعة شارلز فى براج Prague أستاذا للخطوط المسمارية وتاريخ الشرق القديم فى الفترة من ١٩١٩ حتى وفاته فى عام ١٩٥٢ .

أثارت اهتمامه النقوش الحيثية الملكية التى اكتشفت فى بوغازكوى Bogazkoy وتور Tur فى عام ١٩٠٦ ، فانكب على تحقيقها وتفسيرها وشرح أصولها الأمر الذى استغرقه عدة سنوات إلى أن نشر مؤلفه الرئيسى «لغة الحيثيين» Sprache der Hathites (١٩١٥) الذى ما إن صدر حتى أثار ضجة وصار عرضة لكثير من الانتقادات التى وجهت إليه بسبب ما تضمنه من آراء لم يقبلها الكثيرون وبخاصة عندما أعلن أن الحيثية من حيث الأصول ترجع إلى العائلة الهندوأوربية Indo-European وأنها «الحيثية» قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالآيرانية والإيطالية القديمة والسلتية والسلافية .

وليس الهدف هنا هو تحقيق هذه المسألة التى ما زال يدور جدل كبير من حولها ولكن من المهم مع ذلك الإشارة إلى ناحية معينة قد يكون فى الانتباه إليها ما يلقى بشيء من الضوء على قضية أصل اللغة الحيثية برمتها . فبالنظر إلى خريطة العالم القديم سنجد أن هذه المنطقة التى عرفت الحضارة البابلية الآشورية قد بدأت تقدر إليها بعض الشعوب الرعوية الأولى فى الفترة من حوالى ١٨٠٠ ق.م

تقريبا مما يعني أنه كانت هناك أنماط أخرى من الحضارة البسيطة التي اتخذت لنفسها أساليب حياة مختلفة ومغايرة اتصفت بالخشونة والجرأة وما إلى ذلك من الصفات التي يتصف بها الرعاة عموما. وما يهمنا أنه مع تراجع بابل الحضارى كان هؤلاء الرعاة الآسيويون بعرباتهم الحربية التي تجرها الخيول يتجهون بصفة رئيسية إلى الشرق الأدنى وإلى سوريا وفلسطين واكتسح هؤلاء الغزاة (الحيثيون) كل الواحات المستقرة سواء فى جنوب أو وسط آسيا حتى أصبحوا يهددون بابل ذاتها ويقتحمون معاقلها ويقيمون فيها حكمهم. وفى الوقت نفسه أقاموا دولة أخرى فى آسيا الصغرى فى عام ٦٤٠ ق.م استمرت إلى أن جاء من بعدهم فى حوالى عام ١٥٠٠ ق.م الكاشيون الذين قدموا من شعاب جبال زاغروس Zagros التى تفصل ما بين إيران وسهول ما بين الرافدين .

وإذا كان رأى السائد الذى يأخذ به جماهير الباحثين أن الفصيلة الحامية السامية تشتمل على مجموعة اللغات السامية Semitic ومجموعة اللغات الحامية Hamitic وأن المجموعة الأولى (السامية) تتكون أساسا من اللغات السامية الشرقية التى تضم البابلية والآشورية واللغات السامية الجنوبية التى تضم العربية واليمينية القديمة والحبشية السامية واللغات السامية الغربية التى تضم الآرامية والكنعانية والموحابيتية والعبرية (وبعضها كاد يندثر تماما) ، فلا بد أن يكون واضحا فى الأذهان حقيقة التعقيد والتشعب الهائلين فى الفصيلة الهندوأوربية التى ذهب هروزنى إلى أنها أصل اللغة الحيثية . لأن هذه الفصيلة تتشعب بدورها إلى الشعبة الشرقية والشعبة الغربية. ومما له دلالة هنا هو أن الشعبة الشرقية تضم مجموعتى اللغات الآرية (تتشعب إلى الهندية والإيرانية) واللغات البلطيقية السلافية (تتشعب إلى السلافية والبلطيقية) علاوة على الأرمنية والألبانية. فى الوقت الذى تمثل اللغات الغربية الأوربية إحدى التقسيمات الهائلة للشعبة الغربية (من الفصيلة) وما يهم هنا هو أن هذه اللغات الغربية الأوربية تتشعب إلى اللغات الإيطالية الكلتية التى تشتمل على كل من الإيطالية والكلتية.

ومما سبق يتضح بجلاء مدى تعقد وتشعب العائلة الهندوأوربية باعتبار أن لغاتها والشعب التى تتشعب إليها تجعلها أكثر العائلات اللغوية انتشارا وذيوعا حيث يتحدث بها الآن ما يزيد على ألف مليون نسمة فى مختلف بقاع العالم وهو ما يسمح

بوجود كثير من التداخل إن لم يكن التأثير المتبادل والتمازج ما بين اللغات ويجعل من محاولة القول الفصل في مسألة أصول اللغات أمرا على غاية من الصعوبة.

وعلى أية حال فقد عاد هروزنى ليعزز آراءه فأقدم على ترجمة بعض الوثائق التى عثر عليها بين العديد من الرسائل والنصوص التى تصور جوانب الحياة المختلفة وبخاصة الجوانب الاقتصادية والقانونية إبان هذه الفترة واعتمد فى ذلك على ترجمة لأحد القوانين الحيثية وصدر له مؤلفه «النقوش المسماة بالحيثية من بوغازكوى» Hethitische Keilschr: fttexte au Boghazkoi (١٩١٩).

وعموما فقد قاد فى عام ١٩٢٥ بعثة علمية تشيكو سلوفاكية للتنقيب فى تور Tur حيث تمكنت من تغطية حوالى مائة ألف مخطوطة آشورية كما كشف عن مدينة كانيش Kanesh الأثرية القديمة وبذلك وضع فى دائرة الضوء الكثير من مظاهر الحياة اليومية فيها، وهو الطريق الذى استغرقه البقية الباقية من عمره الذى كرسه لدراسة بعض المشكلات المستعصية المتعلقة بالشفرات ورموزها فى محاولة لحلها والوقوف على معانيها للتعرف على ما تخفيه من أسرار.

★ ★ ★

يقف عالم الجغرافيا الأمريكى الثورث هنتجتون فى مقدمة الباحثين الذين شغلتهم مسألة الفروق الاقتصادية والتكنولوجية التى توجد بين الجماعات المختلفة واستند فى تفسيره لهذه الفروق إلى التأثير البيئى المباشر وغير المباشر الذى يؤثر فى الشخصية وفى حضارة الإنسان بما يتدخل كثيراً فى مكونات الحياة الاقتصادية والتكنولوجية ويحدد بالتالى مدى تقدمها بل درجة ذكائها وطبيعتها المزاجية.

ولقد ولد هنتجتون فى الينوى عام ١٨٧٦ وعمل عضواً فى كلية جامعة بيل من ١٩٠٧ - ١٩١٧ ثم باحثاً فى معهد كارنيجى Carnegie بواشنطن فى الفترة من ١٩١٧ حتى وفاته فى ١٩٤٧ فى نيوهافن. وبالرغم من أن هناك العديد من النظريات والاتجاهات الفكرية التى سعى أصحابها إلى تفسير الفروق الاقتصادية والتكنولوجية فإن هنتجتون باعتباره قد اعتمد على التفسير البيئى كان أميل بذلك إلى فكر تشارلس دارون ونظريته فى الانتخاب الطبيعى وبخاصة من حيث القول بأن عوامل المناخ تحدد مسبقاً فرص البقاء وأن هذه الفرص تشجع البعض على حين تدفع بالبعض الآخر إلى الموت ومن ثم فإن لكل بيئة مناخاً خاصاً ومزاجاً خاصاً حيث تظهر أهمية تأثير المناخ فى النشاط الاقتصادى وغيره من النشاطات الإنسانية وخاصة من حيث درجة الحرارة الشديدة التى تؤثر بشكل أو بآخر على الإنتاج الأمر الذى تختلف معدلاته نسبة لمدى تعرض المناطق (أو المدن) إلى الحرارة. وعلى الرغم من أهمية العوامل البيئية فقد لقيت هذه النظرية البيئية الاقتصادية غير قليل من المعارضة وبخاصة بعدما أصبح من المسلم به أن ثمة أهمية بالغة للعوامل التاريخية والسياسية والدينية والثقافية وكلها مسئولة فى النهاية عن تنوع أشكال التكنولوجيا والاقتصاد فى المجتمعات التى تتماثل أقاليمها من الوجهة الطبيعية.

وعلى العموم فقد ظهرت نظرية هنتجتون فى عدد من أعماله الرئيسية التى صدر أولها بعنوان «نبض آسيا» The Pulse of Asia فى ١٩٠٧ وتبعه بعدة سنوات كتابه «الحضارة والمناخ» Civilization and Climate (١٩١٥) ثم كتابه الهام الثالث «شخصية الأجناس» The Character of Races (١٩٢٤) ثم «التوطن البشرى» The

Human Habitat (١٩٢٧) وكان آخرها مؤلفه الضخم «المنابع الرئيسية للحضارة»
Main Springs of Civilization الذي صدر في عام ١٩٤٥ أى قبل وفاته بعامين
اثنين فقط.

★ ★ ★

اسمه بالروسية رومان أوسيبوفيتش ياكوبسون ولد في موسكو عام ١٨٩٦ وعمل استاذاً للغة السلافية واشتهر كمؤسس للحركة الأوربية في اللغويات البنائية Structural Linguistics التي عرفت باسم مدرسة براغ Prague School حيث قام بتوسيع الاهتمامات النظرية والتطبيقية للمدرسة ومدّها إلى نطاقات أوسع من الدراسة والبحث مستخدماً مفهوم البناء ليعطى معنى للمادة الخام التي يدرسها كما درس الظاهرة في مصطلحات العلاقات المتبادلة والمتداخلة بين عناصرها ومكوناتها. وبذلك أصبحت هذه اللغويات البنائية مما يتميز بالعمومية الشاملة والمنهجية وليس الذرية والتفسير الفردي للغويات وبذلك فتح الطريق أمام كلود ليفي ستروس إلى عالم اللغويات وبخاصة الفونولوجى Phonology مما وطد العلاقات بين اللغويات وبين الأنثروبولوجيا وبخاصة بعدما درسا معا Les Chates التي كتبها الشاعر الفرنسى شارل بودلير.

ولقد نال ياكوبسون درجته العلمية الأولى في اللغات الشرقية من جامعة موسكو وتأثر تأثراً بالغاً بالحركات الفنية الموجودة وبخاصة الشاعر المستقبلى كليبنكوف Kilebnikov فعمل في ١٩٢٠ أستاذاً للغة الروسية في المدرسة المسرحية العليا في موسكو High Dramatic School. ومن عام ١٩٢٠ درس وعمل في براغ حيث أصبح مع نيقولا تروبتسكوى Trubetzkoj وكار شيفسكى Karcevski من أعلام مدرسة براغ المرموقين حيث كانت المدرسة تقربياً الحلقة الرئيسية الوحيدة في الدراسات اللغوية وبخاصة خلال العقد قبيل الغزو النازى لتشيكوسلوفاكيا. ولكنه سرعان ما أعلن خروجه عن الوضعية الكلاسيكية البنائية لعالم اللغويات السويسرى فردينان دوسوسير DeSaussure مؤكداً أن منهجيته في دراسة وظيفة الأصوات الكلامية يمكن تطبيقها بشكل تزامنى Synchronically على اللغات كما هي موجودة أو بشكل تاريخى Diachronically أثناء تطور اللغة وتغيرها في الزمان وعموماً فقد قضى السنوات من ٢٩ إلى ١٩٤١ في سكاندناوه حيث اهتم بموضوع الأفازيا ولغة الطفل الذي اعتبر آنذاك من أهم الموضوعات المثارة وعندما تأسست

مدرسة الدراسات العليا الحرة في نيويورك عام ١٩٤٢ على أيدي لفييف من المهاجرين الأوروبيين وجهت إليه الدعوة للمشاركة في اللغويات فانعقدت بينه وبين ليفي ستروس وأصر صداقة عقلية وروحية متينة. وبعد ذلك ذهب عام ١٩٤٩ إلى هارفارد كما عمل من عام ١٩٥٧ في معهد ماشو للتكنولوجيا .

والواقع أن ياكوبسون قد شغل عددا من المناصب الأكاديمية المرموقة فمنذ عام ١٩٣٣ بدأ اتصاله بجامعة مازاريكوفيا Musarykova في تشيكوسلوفاكيا حيث أصبح أستاذا لفقہ اللغة الروسية (١٩٣٤) وأستاذاً لأدب العصور الوسطى التشيكي (١٩٣٦) وإن كانت الأوضاع السياسية آنذاك قد اضطرتة إلى أن يهرب إلى جامعات كوينهاجن ثم أوسلو وأوبسالا حيث عمل أستاذا زائرا في الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٧ .

وتعكس عناوين كتبه ومؤلفاته اتساع النطاق الذي شغله بالبحث والتدريس. فمن بين أعماله المبكرة كتابه «ملاحظات على التغير الصوتي في الروسية مقارنا بغيره من اللغات السلافية» (١٩٢٩) وكتابه «خصائص الروابط في اللغة الأوراسينية» (١٩٣١) ثم «دراسات في لغة الطفل والأفازيا» و«العموميات الفونولوجية» (١٩٤١) ويشتملان على دراسة للمتغيرات البنائية في النظم الصوتية في مختلف اللغات إلى جانب دراسته للصلات الشخصية الأساسية بين الأمريكيين والتقاليد الأوروبية في مجال اللغة.

وفي الفترة بعد الحرب العالمية الثانية تركزت اهتماماته في الدراسات الفونولوجية ففي عام ١٩٥٢ ظهر مؤلفه «مبادئ التحليل الكلامي» ثم كتابه «أساسيات اللغة» (١٩٥٦) بالإضافة إلى بعض الدراسات الخاصة بتعريف اللغة وبالشعر والقواعد والنحو علاوة على دراسته للملاحم السلافية. ثم في أواخر أيامه «شكل الصوت اللغوي» (بالاشتراك) الذي صدر في ١٩٧٩ قبل وفاته بثلاثة أعوام حيث توفي عام ١٩٨٢ في بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية.

★ ★ ★

K

KIDDRE, ALFRED VINSENT

كيدر، ألفريد فينسنت (١٨٨٥ - ١٩٦٣)

على الرغم من أن اسمه قد لا يبدو مألوفا للكثيرين فهو واحد من جيل الكبار الذين قدموا للأنثروبولوجيا ولعلم آثار ما قبل التاريخ أجلّ الخدمات لدرجة أن اعتبر في مقدمة الأركيولوجيين الأمريكيين الذين اهتموا بالدراسات والبحوث الأركيولوجية الخاصة بجنوب غربى الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الوسطى على وجه الخصوص.

وقد ولد ألفريد فينسنت كيدر بمدينة ماركييت Marquette بولاية ميتشجن فى عام ١٨٨٥ ونال درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩١٤ فى موضوع عن تطور الأشكال الأولى للفخاريات التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ فى جنوب غربى أمريكا وهو موضوع عكس امتدادا لاهتماماته الأولى المبكرة عندما بدأ طريقة فى العمل الميدانى عام ١٩٠٧ بدراساته التى أجراها فى كلورادو Colorado ونيومكسيكو New-Mexico كما كان بداية - فى الوقت نفسه - لبعض رحلاته وبعثاته العلمية إلى أوتاوا والأريزونا (١٩١٤) وخاصة عندما أصبح مديراً للتقنيات فى أكاديمية فيليس Phillys Academy وأيضاً فى مناطق بيكوس Pecos وكلها بعثات أضافت كثيراً إلى الأنثروبولوجيا والأركيولوجيا فى جامعات الجنوب الغربى إضافة إلى جهوده فى تكوين العديد من الجمعيات العلمية وتصميم بعض المتاحف وإنشائها. ولهذا وصفه البعض بأنه كان القوة الحقيقية الدافعة وراء أول فهم موضوعى يمثل مدخلا منتظماً لدراسة اركيولوجيا الأمريكتين.

ومع أن كيدر قد ظل على انتمائه لأكاديمية فيليس حتى ١٩٣٥ إلا أن نشاطه العلمى امتد إلى مواقع أخرى فقد كان عضواً فى مؤسسة كارنيجى Carnegie فى واشنطن فى الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٥٠ ومشرفاً على متحف بيبودى Peabody Museum للأركيولوجيا والاثولوجيا كما عمل استاذاً فى هارفارد (١٩٣٠ - ١٩٥٠) وهى فترة كانت حافلة بالعمل والانجاز إذ نظم لمؤسسة كارنيجى برنامج النشاط المتبادل الذى انبعثت منه العديد من الدراسات فى ثقافات ما قبل التاريخ.

فى العامىن ١٩١٩ و ١٩٢١ أصدر كىدر بالاشتراك مع صاموىل جورنسى
Guernsey كتابىن رائدىن عن شمال شرقى ارىزونا . كما كان مؤلفه الممتاز «مقدمة
لدراسة أركىولوجىا الشمال الغربى Introduction to the Study of Northwestern
Archaeology (١٩٢١) عمىقا فى تناوله تفاصيل تطور ثقافة صانعى السلال فى
عصور وثقافات ما قبل التاريخ وهو عمل أصبح معيارىا ونموذجا لهذه النوعىة من
الدراسات بما ألقاه من أضواء على ثقافة البىبلو Pueblo بوجه خاص اعتمادا على
نظام تصنىف بىكوس الاركىولوجى الذى شاع استخدامه من قبل الباحثىن .

وعلى العموم فقد كانت فترة عمله بمؤسسة كارنىجى مناسبة فرىدة لإلقاء
المزىد من الأضواء على التاريخ الثقافى لامبراطورىات وشعوب المایا Maya التى
ازدهرت فى المكسىك وأمرىكا الوسطى وإن لم يمنعه هذا من العمل فى بعض المواقع
القربىة من جواتىمالا إلى أن وافته ومسىته فى كامبرىدج بأمرىكا عام ١٩٦٣ وهو فى
الثامنة والسبعىن من عمره .

★ ★ ★

عالم الأنثروبولوجى الأمريكى الفريد لويس كروبيير يعتبر واحداً من أبرز العلماء الذين أرسوا أسس الأنثروبولوجيا الثقافية وواحداً من القلائل الذين نجحت كتاباتهم، وبخاصة فى النصف الأول من القرن العشرين فى أن تترك تأثيراً ضخماً فى النظرية الثقافية بعامة وفى الجهود التى بذلها العلماء لفهم طبيعة الثقافة والعمليات الثقافية. والواقع أن اهتماماته كانت تدور فى مجالات واسعة من البحث الأنثروبولوجى وبذلك أسهم اسهاماً كبيراً فى فهم وترسيخ اثولوجيا الهنود الأمريكين وعلم آثار ما قبل التاريخ فى نيومكسيكو والمكسيك وبيرو والفولكلور واللغويات وأنساق القرابة والبناء الاجتماعى عموماً.

ولد كروبيير فى عام ١٨٧٦ بالولايات المتحدة وأثناء دراسته بجامعة كولومبيا تأثر بالاستاذ فرانز بواز ونال الدكتوراه فى ١٩٠١ عن رسالته عن الرمزية التجميلية Decorative فى قبائل أراباهو Arapaho الهندية فى مونتانا Montane. وفى ذلك العام أسس قسم الأنثروبولوجيا فى جامعة كاليفورنيا بباركلى وإلى جانب هذا فقد درس كروبيير مواقع الزونى ما بين عامى ١٩١٥ و ١٩٢٠ وهى دراسات أسفرت عن كثير من النتائج التى تتصل بثقافات ما قبل التاريخ حيث استخدم مناهج بحثية منضبطة ولجأ إلى الوسائل التحليلية لتعزيز آرائه ساعدته على بناء نظريته العامة التى تقول بأن الفهم الكامل لأى ثقافة لا بد أن يأخذ فى اعتباره العناصر الثقافية والتنظيمات التى تتخذها الثقافات أثناء تطورها حيث امتدت جهوده إلى المكسيك (١٩٢٤ - ١٩٣٠) وبيرو فى الأعوام ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٤٢.

وعلى مدى حياته العلمية (توفى عام ١٩٦٠ فى باريس) أنتج كروبيير أيضاً من الكتابات والمؤلفات تزيد على ٥٠٠ مقال وكتاب وسير ذاتية. ويعتبر كتاب «الأنثروبولوجيا» الذى صدر فى ١٩٢٣ من أهم المراجع الأساسية فى العلم وكذلك كتابه «آثار بيرو قبل التاريخ» Poruvian Archaeology (١٩٤٢).

كذلك كانت له اهتمامات لغوية تولدت فى الأصل من دراساته للهنود الأصليين. وبالرغم من أنه كان أكثر ارتباطاً بالمنهجية العامة للغويات إلا أنه ركز

بصفة أساسية على دراسة العلاقات التاريخية بين اللغات بعضها وبعض وفى ذلك أبرز واحدة من أهم القضايا التى تتعلق بانعزال المجتمعات والجماعات الإنسانية والعوامل الثقافية مؤكداً فى هذا على أن هناك كثيراً من الحواجز اللغوية حتى بين الشعوب التى تعيش فى بيئات وأماكن متجاورة مثلما الحال فى غينيا الجديدة التى تنقسم الأهالى فيها إلى عدة جماعات متفرقة يتكلمون أكثر من ٢٠ لغة الأمر الذى يوجد أيضاً فى شمال وفى جنوب أمريكا .

وعموماً فإن مؤلفه «تشكيلات النمو الثقافى» (١٩٤٥) يعد من أكثر مؤلفاته تكاملاً وطموحاً حيث سعى إلى الكشف عن عوامل تقدم وتدهور الفن والذكر الإنسانى فكان نموذجاً جيداً لدراسة الكيفية أو الطريقة التى تتغير بها الثقافات من خلال بحث مظاهر وأسباب نمو بعض الثقافات على ما يعكسه كتابه «طبيعة الثقافة» (١٩٥٢) الذى جمع فيه مقالاته التى نشرها فى بعض الموضوعات والقضايا مثل النظرية الثقافية والقراءة وعلم النفس الاجتماعى والتحليل النفسى . ومن بعده كتابه «الأسلوب والحضارات» Style and Civilizations (١٩٧٥) الذى مازال يجذب المتخصص والقارئ العادى إلى اليوم .

★ ★ ★

السؤال المحورى عند الفيلسوف والمؤرخ الأمريكى توماس صامويل كون الذى يعتبر واحدا من أكبر وأهم فلاسفة العلوم كان يدور عن العلاقة بين الفلسفة والعلم. وبالرغم من أن هذا السؤال كان قائما باستمرار وكانت هناك دائما العديد من الاجابات فقد وصفها كون بأنها إجابات تقليدية إذ ركز على منظور جديد يذهب إلى أن هذه العلاقة خاضعة للتفسير التاريخى وقدم فى كتاباته مجموعة من التصورات والمفاهيم لفهم النشاط العلمى فهما صحيحا وهى مفهومات وتصورات هزت بعنف التقاليد الموروثة فى التاريخ والفلسفة وعلم اجتماع العلم وامتد تأثيرها إلى مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة بعامة.

ولد كون فى كليناتي Cincunnati بأمريكا عام ١٩٢٢ وبدأ حياته كواحد ممن شفقتهم العلوم فبعد أن حصل على درجته العلمية من هارفارد اشتغل فى معمل بحوث الاتصال وهو عمل لم يشبع تطلعاته العلمية فهرب إلى هارفارد فى عام ١٩٤٨ وأصبح منذ عام ١٩٥١ عضوا فى كلية تاريخ العلم ثم صار فى ١٩٦١ أستاذاً لتاريخ العلوم فى باركلى إلى أن التحق فى عام ١٩٦٤ بجامعة برينستون.

ولقد نجح كون نجاحا كبيرا فى إثارة الانتباه إلى معنى العلم المتضمن فى أية حادثة أو واقعة علمية وبخاصة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. فبدلا من الفكرة التقليدية فى نمو العلم القائلة بأنه ينمو تدريجيا نتيجة لعملية تراكمية مستمرة للمعرفة الأمبريقية أعطى تصورا لتاريخ العلم أشبه بتاريخ المجتمع ذاهبا إلى أنه يتضمن نوعا من الانقطاع وعدم الاستمرارية بمعنى أن ثمة تقدرات وطفرات وثورات هى ما أطلق عليها الثورات العلمية.

وفى كتابه الذى ظهر فى عام ١٩٦٤ بعنوان «بناء الثورات العلمية» The Structure of Scientific Revolutions مضى يشرح منظوره الجديد الذى قدمه لتطوير العلم وإنماء ادراكه الإنسانى كسبيل لاقتربه اقترابا موضوعيا من الحقيقة. وبالرغم من أن هذا الكتاب كان كتابا عن العلم أكثر منه كتابا فى العلم فقد هز إيمان العلماء فى مدى معقوليتهم ذاهبا إلى أن العلماء سوف يصبحون أكثر

حساسية وأكثر ميلا إلى الانتقاد الذاتى بدلا من خضوعهم المستمر للأنماط التقليدية. وكان بذلك أشبه بالثورة التى اهتز معها كل يقين.

ولقد كان من الطبيعى أن يتعرض لما اعتبره مشكلات متأصلة فى الفهم العلمى مثل مشكلات الاتفاق والقبول التى يتحدث عنها علماء الاجتماع وفى كل هذا فقد وجه انتقادا مريرا لمختلف العلاقات بين المدارس العلمية المختلفة ذاتها مقررا أنها علاقات غير سليمة وغير مرضية والسبب فى ذلك يرجع إلى عدم وجود أرضية مشتركة للبحث العلمى ولا بين النماذج والصيغ والموديلات التى يلجأ العلماء إليها. والتى اعتقد أنها لن تكون مقبولة إلا إذا كانت هناك مثل هذه الأرضية المشتركة وهى فناعة امتدت إلى مناقشته للعملية التعليمية ذاتها حيث ذهب إلى أنها عملية عقيمة لا توجد بها أية إثارة للعقل اكتفاءً بطرقها فى الإملاء والتقليد وهذا ما عرض له فى كتابين رائعين من أهم كتبه ومؤلفاته الأول نشره فى عام ١٩٥٧ باسم The Copernican Revolution: Planetary Astronomy in the Development of Western Thought, 1957 والكتاب الثانى ظهر بعد ذلك بعشرة أعوام فى ١٩٦٧ بعنوان Sources for the History of Quantum Physics. 1967.

★ ★ ★

إن فكر جاك لاكان يجبه القارئ بمزجه العجيب بين مختلف ميادين المعرفة. فبالرغم من أنه مختصص أصلا في التحليل النفسى Psychoanalysis والطب النفسى Psychiatry وهما المجالان اللذان يهتمان بدراسة وعلاج الأمراض النفسية والعقلية فقد ارتبط اسمه منذ الستينيات من القرن الماضى (على الأقل) بالبنائية الفرنسية التى مثلت أبرز سمات الحياة الفكرية والثقافية فى فرنسا. كما أن شهرته ذاتها قامت بصفة أساسية باعتباره واحدا من الأربعة الكبار الذين تتردد أسماؤهم عند الحديث عن هذه البنائية وهم كلود ليفى ستروس Lévi-Strauss وميشيل فوكو Foucault ورولان بارت Barthes وجمال لاكان نفسه فتجاوز بذلك تلك الحدود الضيقة التى يدور فى داخلها تخصصه الأساسى بمعنى أن هذه البنائية ذاتها كانت مدخله الذى استعان به فى تحليله النفسى ومعالجة مشكلات تخصصه الرئيسى تماما مثلما استعان بها رولان بارت فى نقده الأدبى وجاك دريدا فى تحليلاته أو قراءته للنصوص الأدبية والفلسفية وألثوسير Althusser فى نقده للماركسية وفوكو فى دراسته لانساق القوة أو فكرة القوة وتحليله لمكوناتها وبحوثه فى نظريات ونظم العقوبات، فقد ارتكز كل هؤلاء إلى الفكرة المحورية التى تقوم عليها البنائية على الأقل منذ أن تأسست فى ثوبها العصرى الجديد على أيدي ليفى ستروس والتى تقول بأن هناك بناءات أو أبنية عقلية لاشعورية عامة تشارك فيها جميع الثقافات الإنسانية على تعددها وتنوعها ورغم كل ما قد يكون بينها من اختلافات وتباينات كما اعتبر كل هؤلاء أيضا أن الوسيلة الوحيدة لفهم هذه الأبنية العقلية اللاشعورية هى دراسة النص واخضاعه للتحليل اللغوى.

وبصرف النظر عن الظروف الموضوعية التى نشأت فيها البنائية فى الفكر الفرنسى المعاصر فإن لاكان هو بلاشك أحد المفتونين بهذه الوسيلة ويكون التساؤل هنا هو إذن عن ملامح هذا الافتتان. وبتعبير أدق الكيفية التى طوع بها جاك لاكان منظوره الذاتى للبنائية لخدمة أهداف التحليل النفسى وتطويره؟

فى عام ١٩٣٢ نشر لاكان رسالته للدكتوراه التى كانت عن «الذهان البارانوىى وعلاقاته بالشخصية» - Paranoiac Psychosis and its Relationships with Personality . ولكنه عاد فتنشر بعد سنوات قليلة بحثا بعنوان «المرحلة الانعكاسية» The Mirror Stage (١٩٣٦) أو مرحلة انعكاس الصورة باعتبارها صيغة لوظيفة الذات تناول فيه الدور (الوسائلى) الذى تقوم به الصورة التى توجد لدى الأفراد عن الجسم The Body فى تشكيل الموضوع وبنائه وهو البحث الذى يعتبر من وجهة نظر الكثيرين بمثابة مدخله الأولى إلى حركة التحليل النفسى وهو المدخل الذى طوره على مدى سنوات طويلة ليتضح فى الخمسينيات على وجه الخصوص مدى ارتباطه أو حتى ما يمكن وصفه بأنه نوع من التبنى للنظرية التحليلية على مستوى النظر والممارسة والتطبيق معا. وهو موقف يمكن القول بأنه نما وتطور بشكل تدريجى من خلال مناقشاته ومحاضراته التى دأب على القيام بها فى السيمينارات العامة التى كان يعقدها بصفة منتظمة كل ١٥ يوما وكانت تدور أساسا حول موضوعات وقضايا الطب النفسى التقليدى وكما تجرى ممارسته فى المؤسسات النظامية المعنية.

ولقد كان لهذه السيمينارات الدورية أثر كبير فى لفت نظره إلى الحركة البنائية وبخاصة عندما أخذت تتضح أمامه طبيعة الصعوبات التى يلتقى بها باعتبار أنها تكشف عن عمل اللغة وتأثيراتها وهو ما أدى به إلى أن يركز اهتمامه على دراسة اللغويات طالما أنها ركيزة لا غنى عنها فى تناوله التحليلى سواء للنصوص أو المجالات التى يتحدث عنها.

وفى ضوء هذا تتبدى لنا الخاصية الجوهرية لتفكير جاك لاكان والتى أشرنا إليها عابرا بقولنا انه يمازج مزجا عجيبا بين مختلف ميادين المعرفة. والواقع أن تفكيره على الرغم مما ينطوي عليه من صعوبة وتعقيد فى العبارة هو نتيجة جهد متصل (لدمج) اللغويات وبخاصة كما تعكسها أفكار ونظريات فردينان دوسوسير ورومان ياكوبسون وكذلك الانثربولوجيا خاصة عند مارسيل موس Mauss وليفى ستروس والمنطق الرمضى عند تشارلس ساندروز بيرس ونظرية المجموعات والفضات وهى النسق الصورى الذى أعطاه أولوية ملحوظة فى التحليل النفسى والموقف أو الاسهام العام للحركة البنائية فى العلوم الإنسانية الذى يرى أن اللاشعور تم تشييده وبنائه The Unconscious is Structured as a Language فى شكل لغة. والمهم هو

أن هذا (الدمج) أو على الأقل تحقيق التكامل فيما بين هذى التخصصات والمعارف جميعها هو بالذات ما يشكل مضمون (المشروع) الكبير الذى سعى إليه وهو مشروع يثير بعض الجوانب التى يلزم التوقف أمامها.

فمن ناحية بدا واضحا لجاك لاكان أن لا مهرب أبداً لدراسات وبحوث التحليل النفسى والطب النفسى إن لم يكن البحوث المعاصرة فى مختلف حقول وميادين المعرفة من الخوض مباشرة فى مسألة الدلالة. فالموكد أن «الأشياء» و«الصور» و«السلوكيات» لا يمكن أن تكون دالة بذاتها ولكنها تكتسب دلالتها عن طريق اللغة. بتعبير آخر رأى لاكان أن المجالات المعرفية المختلفة تفرض علينا مواجهة اللغة. إن الأشياء تحمل دلالات فى باطنها ولاشك، ولكن ما كان لها أن تصبح «انساقا دالة» لولا تدخل اللغة ولولا امتزاجها باللغة. أى أنه يصعب تصور إمكان وجود مدلولات وأنساق صور أو أشياء خارج اللغة فعالم المدلولات - كما ذهب رولان بارت - ليس سوى عالم اللغة وإذا كانت التفرقة الجوهرية التى أقامها دوسوسير بين اللسان والكلام قد اسدت ولاشك الكثير من الخدمات لكل من علم الدلالة والبنائية على السواء فلا يقل عن ذلك أهمية التمييز الذى أقامه جاك لاكان بين (الواقع النفسى) و(الواقع) من حيث أن الأول (النفسى) يشار إليه على حين الثانى تتعين البرهنة عليه. وهذه ناحية تعرض لها أيضا رولان بارت وغيره من البنائين الفرنسيين الذين أكدوا على أن الواقع لا يقبل التمثيل حتى وإن كان تمثله عن طريق الكلام. ولأنه لا يمكن أن يكون موضع تمثيل فهو موضع إثبات فحسب. أى أنه أمر يمكن التعبير عنه بكيفيات مختلفة وإلا فإن علينا أن نذهب مع لاكان إلى أنه المستحيل الذى لا يمكن بلوغه والذى دائما ما يفلت من أى تعبير أو خطاب. أو نقول إنه ليس بالإمكان المطابقة بين مستوى متعدد الأبعاد (أى الواقع) وبين مستوى أحادى البعد وهو اللغة.

والواقع أن بحوث لاكان قد أدت به إلى اكتشاف العديد من العلاقات المتداخلة والمتشابكة. فالتقاء اللغويات والأنثروبولوجيا والماركسية والتحليل النفسى وتكاملها جميعا فى تفكيره قد نظر إليه لاكان على أنه قيمة علمية بالغة الأهمية خاصة وإنه لم يعتبر هذا التكامل مجرد مواجهة بين أنساق معرفية متخصصة ولكن التكامل الحقيقى يبدأ (بالفعل) عندما يتصدع التساند بين الدراسات والتصورات القديمة الأمر الذى يتم بعنف

يسبب العديد من الهزات التي يتولد عنها موضوع جديد ولغة جديدة لا علاقة لهما بما كانا عليه في داخل حقل معين بذاته من حقول المعرفة.

من الناحية الأخرى. نجد أن هذا الموضوع الجديد وهذه اللغة الجديدة يتطلبان إعادة النظر في كل التصورات والمبادئ والمسلمات التقليدية في علم النفس الفرويدي وهي مراجعة رأى لاكان ضرورة أن تتم في ضوء التأثير المتولد عن المزوجة بين الفرويدية والماركسية والبنائية وهو التأثير الذي يتطلب بالضرورة علاقة بين الواقع النفسى والواقع. تماما كما هو الحال في الأدب عندما يتطلب الأمر تلك العلاقة بين النتاج والقارئ أو النص أو الأثر الأدبى Oeuvre الذي يرمز إلى اللغة بوجوده الظاهرى على الأقل. إنها نوع من المواجهة إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير يقيمها لاكان بين العلوم الإنسانية والحاجة إلى إعادة النظر في كل مشكلة الوجود والصدق والحقيقة الأمر الذي يستلزم توافر نظرة نقدية فاحصة للثقافة الغربية ومنطلقاتها الأيديولوجية. وهنا فقد بدت لجاك لاكان أهمية المقولات التي قال بها ساندرزبيرس والخاصة بالمنطق والظاهرانية والرياضيات. فالمنطق بالنسبة إلى بيرس هو منطق العلاقات أو هو علم الشروط الضرورية الموصلة إلى الصدق. وكان هناك إذن نوعا من التوحيد بين منطق بيرس وبين علم الدلائل وهذه هي الناحية المحورية التي اهتم بها لاكان من حيث أن بمقدوره إذا الكشف عن الدلائل الصادقة والدلائل الكاذبة وإن كان قد تجاوز ذلك إلى القول بأنه يستهدف لا الكشف فحسب عما هو موجود من ظواهر وعلاقات ولكنه يستهدف أيضا الكشف عما ينبغى أن يكون باعتباره علم الفكر النقدي الذي يفتح الأبواب أمام المحتمل والممكن.

وظاهرانية بيرس احتلت موقعا رئيسيا كذلك في فكر جاك لاكان باعتبارها الدراسة التي تهتم بوصف خصائص الظواهر في مقولاتها الرئيسية الثلاث وأقصد بها مقولات الوجود بوصفه كيفية وموجودا وضرورة. أما الرياضيات فموضوعها صياغة الفرضيات واستتباط النتائج منها ومن ثم فهي تستدعى الملاحظة بحيث تضع بناءات في الخيال وفق قواعد مجردة وتلاحظ هذه الأشياء الخيالية لتقف على ما يقوم بين الأجزاء من علاقات.

ومهما يكن من شيء فلاشك في أن أعمال جاك لاكان على الرغم من كل ما تتسم به من تعقيد تعتبر بحق من الأعمال ذات القيمة الحقيقية في العلم الحديث. ويكفى أنه في عام ١٩٥٣ كان من بين المؤسسين للجمعية الفرنسية للتحليل النفسي في الوقت الذي كانت جمعية التحليل النفسي في باريس تخوض معاركها حول قضايا ومشكلات تعليم التحليل النفسي وتدرسه وهو ما أدى في عام ١٩٦٣ إلى تشييد المدرسة الفرويدية بباريس التي كان من بين أهدافها تعديل طرائق إعداد المحللين النفسانيين وهي أهداف نجحت الجمعية في تحقيق بعضها على الرغم من أن لاكان تركها في عام ١٩٨٠ وهي فترة أثمرت على أية حال أهم كتاباته حيث نشر في ١٩٧٣ كتابه الهام «المفاهيم الأربعة الأساسية في التحليل النفسي» وألحقه في عام ١٩٧٥ بمؤلفه «الكتابة الاصطلاحية عند فرويد» ثم بعد ذلك «الأنا والنظرية الفرويدية وطريقة التحليل النفسي» (١٩٧٨).

وقد تختلف الآراء حول أفكار جاك لاكان وحول مواقفه من البنائية ومن التحليل النفسي ذاته كما قد يكون هناك غير قليل من المآخذ على هذا كله. ولكن الشيء المؤكد هو أن أعماله تتصف بكثير من الأصالة والعمق حتى أنها طبعت تأثيرها في كل تراث التحليل النفسي مثلما طبعتها أيضا في الأدب والفلسفة والأنثروبولوجيا بل والتيار العام للفكر الغربي المعاصر بعامه.

★ ★ ★

يعتبر هارولد دوايت لاسويل من أشهر علماء الاجتماع والسياسة الأمريكيين الذين ركزوا على دراسة علاقات القوة والبحث في الشخصية والسلوك السياسى والعملية السياسية عموما مما ساعد كثيرا في تطوير هذه الجوانب وبخاصة أثناء الفترة التي عمل فيها مديرا لبحوث عمليات الحرب والاتصال في مكتبة الكونجرس الأمريكى في الفترة ما بين ١٩٢٩ و ١٩٤٢ .

تلقى علومه في جامعات لندن وجينيف وباريس وبرلين وبخاصة خلال فصول الصيف للسنوات من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٥ ونال درجة الدكتوراه في ١٩٢٦ من جامعة شيكاغو كما قام بتدريس العلوم السياسية في نفس الجامعة حتى عام ١٩٣٨ عندما ذهب إلى جامعة ييل Yale كأستاذ زائر في كلية القانون ثم عين استاذا للقانون فيما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٧٠ وأستاذًا للعلوم السياسية من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٠ وأيضا أستاذًا للقانون والعلوم الاجتماعية في مؤسسة فورد ثم أستاذًا متفرغا في برامفورد كوليج Bramford فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٦ . كما عمل أستاذًا في جامعة نيويورك وجامعة تمبل ومستشارا سياسيا لكثير من الإدارات والوكالات الأمريكية .

والعلوم السياسية بالنسبة إلى لاسويل هي دراسة التغيرات في توزيع أنماط القيم في المجتمع ولما كان النفوذ يرتبط ارتباطا ضروريا بعملية التوزيع هذه كانت القوة تمثل بؤرة اهتماماته ومناقشاته وبحوثه. أما القيم فهي عبارة عن الأهداف المرغوبة بينما القوة هي المشاركة في عملية صنع القرارات وعلى ذلك فنجده يتصور القوة السياسية على أنها تنتج آثارا معينة ومحددة تمارس وجودها على الآخرين ومن هنا فقد برز اهتمامه بدراسة دور الشخصية في السياسة وإن كان تركيزه على الفرد كوحدة للتحليل قد أدى به إلى تركيز الاهتمام بالروابط بين الثقافة والسياسة وبين التطور الاقتصادي والنظم السياسية .

ولقد ركز لاسويل في مؤلفه الشهير «من يحصل على ماذا ومتى وكيف» Politics: Who Gets what, when, How? (١٩٣٦) على دراسة النخبة أو الصفوة التي تمتلك أسباب القوة ولكنه عاد في مؤلفه «القوة والمجتمع: إطار للبحث

السياسى» Power and Society: A Framework for Political Inquiry وهو المؤلف الذى قدمه بالاشتراك مع ابراهام كابلان Kaplan (١٩٥٠) فوسع من دائرة اهتماماته ومناقشاته ليقدم إطارا عاما وأكثر شمولية للبحث السياسى حيث مضى يختبر بعض المقولات الأساسية التى لا غنى عنها فى التحليل السياسى والاجتماعى كمقولة الشخصية ومقولات الشخص والجماعة والثقافة مما يعكس اهتماما عميقا بالجوانب السيكوباثولوجية والمشكلات المصاحبة لعملية البحث عن القوة التى تعترى الساعين إليها والوسائل التى يستخدمونها والتى كثيرا ما تسبب الاحباط للآخرين وبخاصة عندما تكون على حساب بعض الأخلاقيات، وعلى أية حال فقد ظهر اتجاهه نحو بعض الصياغات الأخلاقية فى دعوته القائلة بأن العلوم السياسية والبيولوجية بوجه خاص عليها أن تحدد اتجاهها ومواقفها من المسائل السياسية التى تخدم الإرادة الديمقراطية الساعية لتحقيق العدالة وذلك بالرغم من أنه كان يشك كثيرا فى إمكان وجود ديمقراطية على أية صورة من الصور.

وليس من شك فى أنه يرجع إليه جانب كبير من الفضل فى إبراز أهمية النظرية السياسية وامكانيات تطبيقها تحليليا عن طريق استخدام تحليل المضمون بالدرجة الأولى وهذا ما دفعه إلى الإفاضة فى أساليب تحليل المضمون حيث أطلق على تحليل الكلمات مصطلح تحليل الرموز وأبرز الملمح الأساسى فى هذا على أنه يرتكز على الكلمات المفردة ويميز فى ذلك بين نوعين من التحليل إما باعتبار كل المفردات (الكلمات) أو اختيار عدد من الكلمات يعتبرها مفاتيح أو رموزا لكل الكلمات الأمر الذى مكّنه من توظيف النظرية والانساق السياسية توظيفا تحليليا الأمر الذى انعكس بشكل واضح فى مؤلفه «تحليل السلوك السياسى: مدخل تجريبى» وأيضا فى مؤلفه الذى قدمه بالاشتراك مع دانيال ليرنر Lerner تحت عنوان «الصفوات الثورية العالمية: دراسات فى حركات القهر الأيديولوجى» World Revolutionary Elites: Studies in Coercive Ideological Movements (١٩٦٥) وأيضا مؤلفه عن «مستقبل علم السياسة» الذى صدر قبل هذا الأخير بعامين The Future of Political Science وهو كتاب يعتبر مراجعة لأحد كتبه القديمة التى كان لها توجه معين ونشره تحت عنوان «الأمراض السيكوباثولوجية والسياسة» Psycho-pathology and Politics (١٩٢٠).

★ ★ ★

بول فليكس لازرسفيلد عالم اجتماع أمريكي من أصل نمساوي (ولد في فيينا عام ١٩٠١) كان لإسهاماته ومدخله الذي يتسم بالجدة في دراسة المناهج أكبر الأثر في دفع العلم وتطويره في الولايات المتحدة وأوروبا. تعلم في جامعة فيينا في تلك الفترة الزاهرة التي كانت تموج بالحركات والاتجاهات العلمية والثقافية عندما كان سيجموند فرويد Freud وأدler Adler في أوجهما والتي أنشئ فيها أيضا معهد بوهرل للدراسات السيكولوجية.

نال لازرسفيلد درجة الدكتوراه عام ١٩٢٥ في الرياضيات التطبيقية Applied Mathematics وبعد أن قام بتدريس هذا التخصص قام بتأسيس مركز للبحوث التطبيقية في عام ١٩٢٩ في فيينا حيث برز اهتمامه بقضية تطوير مناهج البحث التي تبني على الدراسات الأمبريقية وليس أدل على اهتمامه بتطبيقات علم الاجتماع من أن آخر مؤلفاته كان كتاب «مقدمة لعلم الاجتماع التطبيقي - An Intro-duction To Applied Sociology» (١٩٧٥) قبيل وفاته بعام واحد.

ولقد مكنته إحدى المنح من مؤسسة روكفلر من المجيء إلى أمريكا التي منحتها الجنسية الأمريكية ولم يمض وقت طويل حتى أصبح واحدا من أكبر العلماء انتاجا ومن بعدهم تأثيرا في العلوم الاجتماعية بأمريكا إذ أصبح مديرا لمكتب بحوث الاتصالات اللاسلكية وهو أحد المشروعات التي تمويلها مؤسسة روكفلر وتشرف عليها جامعة برينستون خلال الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٠ وعندما انتقل هذا المشروع إلى جامعة كولومبيا في هذا العام استمر مديرا وعين في قسم الرأي العام بالجامعة نفسها ولكن تحول المشروع فيما بعد إلى اسم مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية وظل تحت رئاسته حتى عام ١٩٥٠ ومن بين زملائه خلال هذه الفترة التي امتدت حتى الستينيات صامويل ستوفر Stouffer ورايموند بودون وروبرت ميرتون وعندما أصبح استاذا متفرغا عام ١٩٧٠ انتقل في عدد من الجامعات كأستاذ زائر فزار جامعة بيتسبرج Pittsburg وجامعة أوسلو Oslo (٤٨ - ١٩٤٩) والسريون وكان أول عالم اجتماع أمريكي يحظى بدرجة شرفية من السريون.

استخدم لازرسفيلد علم الاجتماع الرياضى منهجا لقياس الكم ويعتبر مزج البحث الاجتماعى الكيفى Qualitative بالبحث الكمى Quantitative من أهم اسهاماته التى كانت سببا فعلا فى تطوير علم الاجتماع وفى بحثه للمشكلات التى شغلت تفكيره وفى مقدمتها مشكلات البطالة والاتصال الجماهيرى والسلوك السياسى بالإضافة إلى بحوث التسويق ومختلف القضايا النظرية والمنهجية المرتبطة بعلم الاجتماع وغير ذلك من القضايا والمشكلات الاجتماعية التى تفجرت فى النصف الثانى من القرن العشرين فقد كان علم الاجتماع بالنسبة إليه يتمثل فى القيام بدور كاشف الطريق أمام الباحثين فى العلوم الاجتماعية أى دور الوسيط بين الفيلسوف الاجتماعى المراقب والمتأمل والباحث الأميريقي الذى يعتمد أساسا على مختلف الأساليب الفنية فى البحث التى تدعمها النظرية السوسولوجية ذاتها. وربما كانت من أهم كتاباته «الاختيار الجماهيرى» The Peoples Choice (١٩٤٨) ذهب فيه إلى ميل أصحاب الاتجاه الواحد إلى الاتصال ورؤية بعضهم أكثر من الاتصال بمعارضيهم فالإنسان يميل إلى مخالطة أشباهه وكتابه «الاتصال الجماهيرى» Mass Communication (١٩٥٥) الذى قدمه مع كاتز Katz وأيضا كتابه بالاشتراك مع موريس روزنبرج Rosenberg «لغة البحث الاجتماعى» The language of Social Research (١٩٥٥).

★ ★ ★

عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطاني وأحد كبار المتخصصين في دراسة ثقافات الشرق وجنوبي آسيا والمؤسس الأول لتيار البنيوية في العلوم الاجتماعية في العالم الانجلوأمريكي في مقابل كلود ليفي ستروس مؤسسها في فرنسا وأوروبا عموما. درس الرياضيات والهندسة في مالبورو وفي كامبريدج حيث نال درجته العلمية الأولى عام ١٩٢٢ ولكنه التقى بما لينوفسكى الذي كان وقتذاك في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم والسياسية فدرس على يديه وغير اتجاهه إلى الانثروبولوجيا.

كان منشغلا بالبحث والعمل في بورما Burma عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية فانخرط في الحرب مع جيش بورما البريطاني وحدث أن ضاعت أصول رسالته مما جعله بعد ذلك يعتمد على بعض المصادر الثانوية وعلى أية حال فقد نشر هذا العمل الذي يعتبر انجازه الأول الكبير بعد ذلك بعدة سنوات تحت عنوان «النظم السياسية في أعالي بورما» Political Systems of Highland Burma (١٩٥٤). وفي أثر هذا قام أيضا ببعض الدراسات الحقلية في كردستان Kardistan وسيلان Cylon وبورونيو Borneo وسيريلانكا Srilanka ونشر عنها بعض التقارير الأثنوجرافية التي كانت أساسا لبعض مؤلفاته المبكرة. وبالرغم من أن ليتش تشرب مواقف وتقاليد المدرسة الوظيفية كما نجدها عند مالينوفسكى فقد تأثر في وقت لاحق في الخمسينيات بكلود ليفي ستروس وبدأ معه حوارا طويلا كان سببا مباشرا في لفت أنظار الأنثروبولوجيين البريطانيين إلى أعمال كلود ليفي ستروس المهمة وإلى البنائية الفرنسية عموما التي سرعان ما أصبح (ليتش) واحدا من أهم نقادها بالرغم من أن البعض كان يعتبره هو نفسه من ضمن البنائين.

ولقد عمل ليتش أستاذا في مدرسة لندن في الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٣ ثم في كامبريدج (٥٣ - ٧٨) وخلال هذه الفترة كان كدأبه مفرما بالنقاش وبالتحدى ومثيرا للجدل ومع أنه كان رئيسا لرابطة الإنسانيين لبعض الوقت وانتخب في عام ١٩٧٢ للأكاديمية البريطانية ونال لقب سير (فارس) عام ١٩٧٥ إلا أنه كتب عددا من المقالات ينتقد فيها فكر رادكليف براون اعتبرت بمثابة تحدٍ للاتجاه

السوسيولوجى فى الانثربولوجيا البريطانية الذى يمثله رادكليف براون وأتباعه إذ اتهمهم ليتش بأنهم يأخذون بنظرة وصفية واستاتيكية مغالية فى نظرتهم وتفسيرهم للعلاقات ونظرة آتية وميكانيكية للطقوس والأيدىولوجية وذلك على الرغم من أن ليتش نفسه لم يكن أبدا صاحب نظرية بالمعنى التقليدى المفهوم.

وهناك على الأقل ثلاثة أعمال رئيسية لادموند ليتش إلى جانب العدد الكبير من الكتابات والمؤلفات والمقالات التى كتبها عن الثقافة والاتصال والرمزية الدينية والنظرية العامة للقرابة بالاضافة إلى نقده للاتجاهات التطورية والنظرية السوسيولوجية بعامة: وأول هذه الأعمال الرئيسية هو مؤلفه «إعادة التفكير فى الانثربولوجيا» Rethinking Anthvopology (١٩٦١) الذى أكد فيه أن هذا العلم بدأ يتجمد ويتراجع بل ويتخلف عن الواقع الحالى والتاريخى بالاضافة إلى اتهامه العلم والعلماء بالرجعية وبمعاداة أسس الوحدة الإنسانية والاتجاه التاريخ.

أما الكتاب الثانى فقد نشره تحت عنوان «التكوين بوصفه اسطورة» Genesis as Myth (١٩٧٠) فقد انشغل فيه بشرح ونقد وتعديل نظريات كلود ليفى ستروس فى التصنيف وفى الأساطير وإن كان قد تعرض فيه أيضا لبعض الموضوعات التى آثارها المرتبطة بالكتاب المقدس (الانجيل) والتى اخضعها للتحليل من وجهة نظره. وأخيرا هناك الكتاب الهام الثالث الذى يمثل عمله النظرى الكبير باسم «الأنثربولوجيا الاجتماعية» (١٩٨٢) والذى واصل فيه بوجه عام حواراته مع ليفى ستروس والبنائىة الفرنسية عموما.

ولقد ترك آدموند رونالد ليتش لفيفا من الأنثربولوجيين المشهود لهم من بينهم فردريك بارت Barth ونيريامان Yalmen وغيرهما ممن تأثروا باتجاهاته فى دراسة التكوينات الاجتماعية ومشكلات الطوائف الدينية والاقتصادية فى بعض المجتمعات وما ارتبط بها من قضايا التدرج والحراك الاجتماعيين.

★ ★ ★

ربما كان كلود ليفي ستروس أبرز البنائين الفرنسيين المعاصرين على الأقل في ثوبها الحديث بعدما ظهرت في مراحل مختلفة على أيدي فردينان دوسوسير. كما أنه أحد أقطاب هذه البنائية التي طبقت على أوسع نطاق في تحليل الأنساق الثقافية والظاهرة الثقافية عموماً وبخاصة أنساق القرابة والأساطير في ضوء العلاقات البنائية التي تقوم بين عناصرها. فكانت بحق بنائية أثرت لا في علوم القرن العشرين الاجتماعية فحسب ولكن أيضاً في دراسة الفلسفة والأديان المقارنة والأدب في مختلف الأنحاء.

ولد ليفي ستروس في عام ١٩٠٨ وتلقى تعليمه الثانوي في باريس في ليسيه جانسون دي سالي وبعد ذلك كانت دراساته في القانون والفلسفة في جامعة باريس (١٩٢٧ - ١٩٣٢) وبعدها قام بالتدريس في إحدى المدارس الثانوية واتصل بجان بول سارتر Sartre وندواته ومحاضراته الثقافية ثم سافر إلى البرازيل وعمل أستاذاً للاجتماع في جامعة ساو باولو Sao-Paulo (١٩٣٤ - ١٩٣٩) حيث بدأ اهتمامه بالانثروبولوجيا وبدأ رحلاته في الأمازون ولكنه عاد إلى فرنسا (١٩٣٩) ومن بعدها سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث اشتغل أستاذاً زائراً في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي في نيويورك (١٩٤١ - ١٩٤٥) وهي فترة تأثر خلالها ببحوث ودراسات العالم اللغوي ياكوبسون Jakobson وظل يعمل كمستشار ثقافي في السفارة الفرنسية في واشنطن (٤٥ - ١٩٤٨) ثم بعد عودته إلى فرنسا عين مديراً مساعداً لمتحف الإنسان في باريس (١٩٤٩) ثم كان مديراً للدراسات العليا بالمدرسة التطبيقية في باريس (١٩٥٠ - ١٩٧٤) وكان قد عين أستاذاً لكرسي الانثروبولوجيا الاجتماعية في الكوليج فرانسيز (١٩٥٩) وانتخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية منذ ١٩٧٣ .

وتمثل بنائية كلود ليفي ستروس محاولة متعمقة لفهم الأنساق الثقافية واختزالها إلى ما اعتقده الأساسيات أو الجوهريات أو العناصر الجوهرية في الثقافات حيث تتمثل نظريته إلى الثقافات في أنها أنساق اتصال ونماذج بنائية تقوم على اللغويات ونظرية المعلومات والتحليل اللغوي هما بالذات اللذان بمقدورهما تقديم تفسير لها.

والحقيقة أنه يصعب فهم ليفى ستروس لأن هناك من يعتقد أنه كان يسعى إلى تقديم نسق تفسيري شامل للعالم وهذا خطأ شائع في الواقع لأنه لم يقدم على ذلك وربما كان ما أعطى هذا الفهم أو الإيحاء أن أعماله كانت تعكس نوعاً من المحاولة للوصول إلى ذلك وهو ما ينعكس في كتاباته التي دارت حول معظم المجالات المختلفة للثقافة.

ولقد ارتكزت كتابات ليفى ستراوس على إطار أساسي لنظرية المعرفة تدور من خلاله كل تفسيراته للثقافة والأساطير وهو إطار يعطى الأولوية للبيئة السوسيوولوجية على البيئة الطبيعية في تفسير الأحداث والتناقضات في الثقافة الإنسانية. ونحن نلاحظ أن التفسيرات المعاصرة لمصير الجنس البشري تتأرجح بين قطبين أو نموذجين تفسيريين فالبيئة الإنسانية سواء أكانت البيئة الطبيعية تعكس نوعاً من الحتمية الضرورية التي تقع في داخلها مختلف الظواهر والأحداث ولكنه أميل مع ذلك إلى أن البيئة السوسيوولوجية هي ما يعتبر أفضل مدخل يمكن أن يقدم تفسيراً لما يوجد من اختلافات في تصوره أن الاختلافات المتعددة والمتكثرة في الثقافة الإنسانية ليست اختلافات تعسفية أو عشوائية وإنما هي نتيجة للتفاعل المستمر بين نوعين من المجالات اللذين يمثلان ضغوطاً أساسية تتمثل فيما يوجد في العالم الخارجي من ناحية وفي العالم الداخلي من ناحية ثانية وهذا ما أطلق عليه (الروح الإنسانية) *L'Esprit Humain* أو العقل البشري. وفي اعتقاده أن العقل البشري ليس وحدة أو ذاتية ميتافيزيقية وإنما هو شيء مادي أو الجهاز العصبي للإنسان. وما الثقافة إلا نتاج التفاعل بين العالم الخارجي وإمكانات وقدرات هذا الجهاز العصبي أي العقل. وربما من هنا كان تصور ليفى ستروس الأساسي القائل بأن الانثربولوجيا البنائية هي مزاج بين علم النفس والانثربولوجيا وبالذات الانثربولوجيا الإدراكية *Cognitive* على وجه الخصوص. أما معنى ذلك فهو أن لكي نفهم الثقافة فإنه يلزم من ثمة أن نفهم كلا من العقل البشري والعالم الخارجي وهذه مسألة معقدة وفي غاية الصعوبة.

ولكن الناحية الثانية لكي نفهم كلود ليفى ستروس فهي الوقوف على تصوره للتاريخ وهنا يلزم أن نتذكر شيئاً معيناً هو أنه كان يعتبر في وقت من الأوقات واحداً من الماركسيين وأن هناك من المفكرين والباحثين من ينظر إليه هذه النظرة حتى

اليوم. ولكن فحص كتاباته جيدا سوف يكشف عن حقيقة أنه لا ماركسى Anti-Marxist والدليل على ذلك يقوم فى تصوره للتاريخ وهو تصور لا تاريخى Anti-Historicist بالدرجة الأولى.

بالنسبة إليه ليس هناك ما يوصف بأنه قوانين تاريخية أو قوانين للتاريخ. وفى تصوره أن التاريخ عملية احتمالية أشبه بعجلة الروليت تلقى ببعض الظروف والأحداث التى تسمح للثقافات أن تتراكم ويكون لها آثارها التى تختلف فى الزمان والمكان. ولأن التاريخ بهذا الشكل يكون من الصعب التنبؤ به. ولأجل هذا فلا بد من الاحتفاظ إذن بسجلات ووثائقه وأحداثه بقدر ما تسمح الظروف وبتعبير آخر التاريخ يقدم للإنسان فقط تلك التجارب التى يستطيع الانثروبولوجى أن يعود إليها ولكن ما وراء التاريخ أو ما يحدث فى باطنه فإنه مسألة أخرى. وهذه تمثل إحدى المشكلات التى تقوم بين علوم الإنسان Science de l'Homme والعلوم الطبيعية. أضف إلى ذلك فارقا آخر هو أن العلم الطبيعى يلتصق فى محاولة فهمه والتعامل معه بمستوى الشرح والتفسير على حين تسعى علوم الإنسان بالضرورة إلى الفهم وإلى الوقوف أو التعرف على المعنى. ومن هنا اعتبرت قضية الفهم والمعنى قضية محورية عنده إن لم تكن القضية الرئيسية.

وليس من شك فى أن المتبع الدقيق لكتابات ليفى ستروس سوف يكتشف بنفسه هذه الجوانب كلها. ومن أمتع دراساته التى حاول بها الوصول إلى هذا التصور دراسته عن القرابة التى تعتبر أول أعماله الضخمة التى نشرها بعنوان «الأبنية الأولية للقرابة» Les Structures Élémentaire de la Parenté الذى ظهر عام ١٩٤٩ (ترجم إلى الانجليزية فى عام ١٩٦٩) وهو كتاب اشتمل على تحليل للعوامل البيولوجية والثقافية فى الزواج والروابط القرابية وفى المصاهرة وما ينجم عنها من التزامات. وباختصار يقوم الكتاب على إحدى الفرضيات البنائية الأساسية التى تذهب إلى أنه فى كل مجتمع وحتى فى تلك الحالات التى يبدو فيها الزواج كأنه نتيجة لقرار فردى أو مواقف عاطفية أو اقتصادية فإن ذلك لا يكون بعيدا أبدا عن القرابة والعوامل القرابية وروابطها. ولا بد أن نتذكر هنا الدور الذى تقوم به الهدية Gift التى تكلم عنها مارسيل موس Mauss ودور الزواج الداخلى والزواج

الخارجى وحتى تقديم بعض الثقافات الزوجات كهدية أو لإكرام الضيف وكذلك تقديم بعض الثقافات منتجاتها كهدايا وأثر ذلك كله فى التماسك الإجتماعى.

ولكن من المهم القول بأن تأثير مارسيل موس ولويس مورجان وريفرز إذا كان يظهر يمثل هذا الوضوح فى دراسات ليفى ستروس للقرابة فليس الحال كذلك بالنسبة إلى دراساته للأساطير التى يمكن اعتبار العالم الروسى فلاديمير بروب Propp هو المؤثر المباشر فى ليفى ستروس فى هذه الناحية.

لن أخوض فى هذه النواحي لغموضها ولتشعبها ولكن يكفى الإشارة إلى مؤلفه الضخم «أسطوريات» Mythologiques (١٩٦٤ - ١٩٧١) الذى يتكون من أربعة أجزاء تضم أفكاره المحورية التى بناها على دراساته لأساطير قبائل الهنود الأمريكيين وتعكس طريقته فى التحليل. وفى تصور ليفى ستروس أنه لا توجد هناك أية مضامين خفية Latent أو رسالة معينة أبعد مما تعكسه المعانى الواضحة وإنما معنى الأسطورة يتمثل فى حقيقة أن هناك أساطير أخرى قد تكون مشابهة أو مخالفة فى نفس الموقف ونفس الاتجاه. وبتعبير آخر أن كل ثقافة لها نسقتها ولها أساطيرها مما يلزم معه أن تتم دراسة الأسطورة فى ذات الثقافة التى تنتمى إليها حيث يسهل تحليلها والتعرف على مكوناتها من خلال النسق الأسطورى الخاص به وربما بهذه الوسيلة يمكن التعرف على المشابهات بين مختلف الانساق بالرغم من كل تأثيرات الانتقال والانتشار الثقافيين.

ولقد تعددت كتابات ليفى ستراوس ما بين الكتب والمؤلفات وعشرات المقالات التى تناولت مختلف الموضوعات فى مختلف المجالات. ففى الخمسينيات من القرن الماضى ظهرت مسيرة رحلاته فى مؤلفه «الأفاق الحزينة» Tristes Tropiques الذى كان بمثابة ترجمة لحياته العلمية فى مختلف الثقافات والشعوب ولبنائه وتكوينه العلمى (١٩٥٥) ومثل بذلك قطعة أوتوجرافية أدبية رائعة. ثم ظهر بعد ذلك كتابه الممتاز «الانثربولوجيا البنائية» Anthropologie Structurale (١٩٥٨) و«الفكر المتوحش» La Pensée Sauvage (١٩٦٢) و«الطوطمية اليوم» Le Totémisme Au-jourdhui فى العام نفسه ثم «الطوطمية» Totémisme (١٩٦٩) ثم بعد ذلك ظهر له «طريق الأقنعة» La Voie des Masques (١٩٧٥) فى جزئين ضمنهما تحليلاً للنق والعتيدة والأساطير بين هنود الساحل الشمالى الغربى لأمريكا وفيه مقابلة بين

الفن البدائي والفرن في المجتمعات المتقدمة التي أطلق على فنها تسمية «الفن المتحضر».

وبالرغم من كل هذا هناك ناحية من الصعب عدم الاحاطة بها ونحن بصدد فهم ليفى ستروس وتمثل في أن هناك ميلا إلى الربط في كثير من المواضيع والأماكن بين ليفى ستروس وبين دور كايم عبر مارسيل موس وهي مسألة تستحق إمعان النظر خاصة وأنه هو نفسه يعلن تأثره بالأنثروبولوجيا الانجليزية والانجلوساكسونية عموما أكثر من المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع التي تزعمها دور كايم وموس من بعده. إضافة إلى تقديره الذي كان يعبر عنه كثيرا لرادكليف براون ولوى وريفرز ومن قبلهم فرانز بواس. فإلى أي مدى يعتبر هذا الربط صحيحا؟ الواقع أن اهتمام بواس بالنظرية ومحاولته الوصول إلى النظرية هي ما يمكن اعتباره النقطة الجوهرية التي تفصل بين الاثنين. ولئن كان الأمر كذلك فيكون التساؤل المنطقي هو: من أين إذن أتت التأثيرات الأساسية في فكره؟ والجواب يكمن ببساطة في البنائية الفينولوجية Structural Phonology حيث بدأ تأثره برومان ياكوبسون واضحا أشد الوضوح منذ أن التقيا في نيويورك.

ومهما يكن من أمر فمن الصعب حقا إعطاء تقييم دقيق لتأثير ليفى ستروس على الأنثروبولوجيا المعاصرة نظرا لتشعبه ولكن من المهم القول إن بنائيته وجدت انتشارا كبيرا منذ الستينيات وبخاصة عندما وقعت أحداث الطلبة عام ١٩٦٨ التي أعادت اهتمامه بالماركسية وذلك إلى درجة أن تأثيره قد امتد إلى كل الاتجاهات البنائية الفرنسية فاستفاد جاك لاكان على سبيل المثال من مبدئه في الوظيفة الرمزية كما أنه أوحى لرولان بارت بمدخله لقراءة الأساطير ودراستها في الوقت الذي اكتشف جاك دريدا فيه صدى لجان جاك روسو ورؤيته للعصر الذهبي وحنينه الرومانتيكي إليه بعالمه الأسطوري البعيد والسعيد.

★ ★ ★

فيلسوف ومنطقي وأحد كبار فلاسفة الأخلاق الأمريكيين المرموقين الذين أسهموا اسهاما بالغا في إثراء نظرية المعرفة فقد اتسمت نظريته في الأخلاق والمعرفة بالنزعة التصورية والنزعة البراجماتية في داخل إطار من الفلسفة الكانتية إذ سعى إلى تطوير التصورات الفلسفية بالطريقة التي سبق إليها كانت Kant باعتبار أنها متأصلة في الحقيقة الأمبريقية ولهذا فقد ذهب إلى أن المعرفة لا تكون ممكنة إلا بوجود إمكانية الخطأ مما يعنى صراحة أنه أقدم على تحويل النظرة التقليدية التي تقوم على التجربة الحسية التي ينظر إليها على أنها ضمان المعرفة الحقة واليقينية فيما يتعلق بالواقع وبالحقيقة. لأن الفرد لا يكون في أغلب الأحيان مخطئاً بالنسبة إلى الانطباعات التي تأتيه عن طريق الحواس.

ولقد ولد لويس في عام ١٨٨٢ في ستونهام الأمريكية وتخرج في جامعة هارفارد حيث قام بالتدريس من عام ١٩٢٠ إلى أن تقاعد في عام ١٩٥٢ بعد أن ظل أستاذا للفلسفة منذ عام ١٩٢٠. وخلال هذه الرحلة كان من الطريف والجميل أيضا أن جامعة كولومبيا كرمته في عام ١٩٥٠ باعتباره أحد كبار المناطقة المشهود لهم. ثم حدث أيضا بعد ذلك بعدة سنوات أن قدم له المجلس الأمريكي للتعليم مبلغ ١٥ ألف دولار في عام ١٩٦١ كجائزة له واعترافا بفضله. والواقع أنه قد ترتبت على جهوده ومواقفه إحدى النتائج الهامة فيما يتعلق بالمشكلات الاستمولوجية (المعرفية) التي اعتبرها لا تعدو أن تكون مشكلة تفسير ذاتي يقوم به الإنسان عن تجاربه وخبراته الحسية. أما فيما يتعلق بمسألة الحكم واليقين فإن اليقين الوحيد الممكن في رأيه هو ما يكون مستمدا مما أطلق عليه «الحكم المنتهى» Terminating Judgment الذي يتضمن قضية عن الواقع سبق التحقق من صدقها تجريبيا. والحكم المنتهى بالنسبة إليه لا بد أن يكون متعلقا بالظواهر بينما يتعلق الحكم غير المنتهى بغير ذلك من القيم والموضوعات الأخرى. وإن كان اليقين والمعنى قد يوجدان مع ذلك في الحكم غير المنتهى (أو الحكم المعلق) إنما في حالة ما إذا كان الحكم المنتهى يساندهما ويقف وراءهما.

ومن ناحية ثانية انتقد لويس المنطق الصوري المعاصر مستخدماً أيضاً تطبيقات مادية وتجريبية وبدلاً منه قدم نسقاً منطقياً يقوم على التضمينات المحددة بمعنى أنه رفض تماماً تلك الأنساق التي لا ترتبط بها هو متضمن في الخبرة والتجربة. أما المقولات المجردة التي يزخر بها المنطق التقليدي فهي بذاتها موضوع للتغيير. ومهما يكن من أمر فقد أفاض لويس في شرح منطقهِ وفلسفته في عدد من أعماله الرئيسية من بينها «المنطق الرمزي» Symbolic Logic (١٩٣٢) وكتاب «تحليل للمعرفة والتقييم» An Analysis of Knowledge and Valuation (١٩٤٧) وكتاب «أساس وطبيعة الحق» The Ground and Nature of Right (١٩٥٥).

★ ★ ★

في مقدمة الأنثروبولوجيين الأمريكيين الذين أثروا تأثيرا كبيرا في تطور الأنثروبولوجيا الأمريكية والأنثروبولوجيا الثقافية على وجه الخصوص باعتباره واحدا من العلماء المبرزين المهتمين بعلم آثار ما قبل التاريخ والأثنولوجيا، حتى أنه أصبح حجة في مجموعات وآثار الهنود الأمريكيين وفي قبائل وشعوب الأقيانوس.

ولد رالف لينتون في فيلادلفيا Philadelphia عام ١٨٩٣ ودرس في كلية سوار ثمور Swarthmore حيث ظهر اهتمامه وشغفه بالآركيولوجي «علم آثار ما قبل التاريخ» وقام بجهد كبير في نجاح إحدى البعثات التي أرسلت إلى نيومكسيكو وكلورادو وجواتيمالا (١٩١٢ و ١٩١٣). نال درجة الدكتوراه في عام ١٩٢٥ وقام ببعثة أخرى إلى مدغشقر وشرق أفريقيا حيث درس التانالا Tanala (من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٧) وهي رحلة تمخضت عنها كتاباته الرئيسية التي امتزجت بنتائج بعثته الأخرى إلى جزر ماركيز Marquesas (١٩٢٠ - ١٩٢٢) التي اعتبرت بمثابة نقطة تحول رئيسية في حياته إذ أصبح مديرا لمتحف التاريخ الطبيعي في شيكاغو (١٩٢٢ - ١٩٢٨) وتمكن من دراسة عدد من القبائل الهندية الأمريكية. كما عمل في عدد من كبريات الجامعات الأمريكية فكان أستاذا في جامعة ويسكونسن وجامعة ماديسون (٢٨ - ١٩٣٧) وجامعة كولومبيا (٣٧ - ١٩٤٦) وجامعة بيل (٤٦ - ١٩٥٣) حيث توفي في أواخر شهر ديسمبر من العام نفسه. وتتميز هذه الفترة الأخيرة من حياته بأنه عمل مع مالمينوفسكى والمحلل النفسى ايبيرام كاردينير في بضعة أعمال مشتركة عن العلاقة بين الثقافة والشخصية حيث اعتمدوا بصفة رئيسية على التقارير المختلفة عن المجتمعات البدائية وبعض القرى الأمريكية الحديثة.

والواقع أنه نتيجة لهذه الجهود جميعها فقد نشرت له عدة مؤلفات رئيسية اشتملت على نتائج بحوثه من ناحية وعلى مواقفه النظرية من بعض المشكلات الأساسية في العلم من ناحية ثانية. فنتيجة لجهده المشترك مع كاردينير ومالمينوفسكى ظهر كتاب «الحدود النفسية للمجتمع» The Psychological Frontier of Society الذى كتب له لينتون مقدمة ضافية عكست مفهومه عن المجتمع الذى عبر عنه بأن النظم الاجتماعية لا تعمل إلا باعتبارها أجزاء من كل أوسع وقصد

بذلك الثقافة الكلية الشاملة للمجتمع في الوقت الذي انتقد فكرة بقاء النسق واستمراره وذلك من خلال تحليله ومناقشته لمفهوم التكامل الثقافي حيث ذهب إلى أن الوظيفيين قد فشلوا في تحديد ما يقصدون به مؤكداً أن العلاقة بين الشخصية والثقافة تشبه العلاقة ذاتها بين الفرد والنظام الاجتماعي فأى فهم لشخصية الفرد أو للمركب الاجتماعي أو الثقافي الذي هو جزء منه يتطلب تحليلاً دقيقاً للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل واعتماد كل منهما على الآخر وهي المشكلة التي ظهرت لدى علماء الاجتماع وهم يتحدثون عن علاقة الفرد بالنظام الاجتماعي.

ويعتبر كتابه «دراسة الإنسان» The Study of Man: An Introduction (1936) مؤلفه الرئيسي وربما أهم اسهام نظري له باعتباره مركباً محكماً من النظريات الأنثروبولوجية والاجتماعية والسيكولوجية وإن لم يعتبر الأسرة ركناً من أركان البناء الاجتماعي كما ذهب بعض الأنثروبولوجيين الكبار، كما طور في كتابه «الخلفية الثقافية للشخصية» The Cultural Background of Personality الذي ظهر في عام 1940 نظرية الشخصية الثقافية التي تعتمد على المكانة والمنزلة الاجتماعية وهي عناصر أساسية تشكل النمط الأساسي للشخصية في أية ثقافة. أما عمله الأخير (نشر عام 1955 بعد وفاته بعامين) فقد كان بعنوان «شجرة الثقافة» The Tree of Culture (وإن كان البعض يترجمه إلى شجرة الحضارة) فقد دار حول أصل الإنسان والتأثيرات البيولوجية على السلوك الثقافي. وعموماً فإن ما لا شك فيه هو أن رالف لينتون يعتبر علامة بارزة في تطور الأنثروبولوجيا الثقافية بكل المقاييس.

★ ★ ★

سيمور مارتن ليبست عالم اجتماع أمريكي ومنظر وعالم سياسة له اسهاماته المميزة فى النظرية الاجتماعية والسياسية واعتمدت شهرته العالمية الواسعة على آرائه وبحوثه ودراساته التى دارت حول السياسة المقارنة والبناء الطبقي وأشكال الصفوات وأنماطها والأحزاب السياسية والعملية السياسية بعامة.

وقد ولد ليبست فى نيويورك عام ١٩٢٢ وبعدما تخرج فى سيتى كوليج (١٩٤٣) عمل محاضرا فى تورنتو (٤٦ - ١٩٤٨) ثم أستاذا مساعداً فى جامعة كاليفورنيا فى باركلي حتى عام ١٩٥٠. وفى هذه الأثناء حصل على درجة الدكتوراه (١٩٤٩) من جامعة كولومبيا حيث ظل من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٦ وعمل أثناء ذلك مديرا مساعدا لمكتب البحث الاجتماعى التطبيقى (٥٤ - ٥٦) الذى كان بول لازرسفيلد قد أسسه. وفى الفترة من عام ٦٢ إلى ١٩٦٦ عمل مديرا لمعهد الدراسات الدولية ثم أصبح أستاذا فى هارفارد من العام ١٩٦٦ إلى أن أصبح استاذا للعلوم السياسية وعلم الاجتماع فى معهد هوفر بجامعة ستانفورد منذ عام ١٩٧٣ .

وبوجه عام يعتبر ليبست من بين المهتمين بشكل أساسى بمشكلات المجتمعات الصناعية الحديثة وكان يعتمد فى هذا على اختبار الفروض والنظريات فى ضوء البحث المقارن حيث كان ينظر بشدة من إطلاق التعميمات دون الاستناد إلى مثل هذه البحوث والدراسات. وتكشف عناوين كتبه ومؤلفاته عن المحاور الرئيسية والاتجاهات الأساسية لفكره النظرى. فقد قدم «الاشتراكية الزراعية» Agrarian Socialism (١٩٥٠) و«الديمقراطية الاتحادية» Union Democracy (١٩٥٦) وهو كتاب قدمه بالاشتراك مع كولمان Colman وترو Trow ويشتمل على دراسة للاتحادات العمالية وتنامى قوة الطبقة الوسطى وأصحاب الياقات البيضاء كما قدم بالاشتراك أيضا مع بندكس Bendix كتابين آخرين هما «الحراك الاجتماعى فى المجتمع الصناعى» Social Mobility in Industrial Society (١٩٥٩) و«علم الاجتماع السياسى» Political Sociology (١٩٦٤) ثم مع بندكس أيضا كتاب «الطبقة والمكانة والقوة» Class, Status and Power وهو دراسة مميزة للتدرج الاجتماعى وأنماطه وكذلك كتابه «الإنسان السياسى» Political Man (١٩٦٠) وهو

كتاب فاز بجائزة ماكيفر واشتمل على دراسة لسلوك الانتخابى وللمتطلبات الاجتماعية الواجب توافرها لقيام الحكومة الديمقراطية وخاصة فى المجتمعات الغربية التى تلعب فيها دورا بالغ الأهمية عمليات التنمية الاقتصادية على وجه الخصوص.

ولكن منذ أواخر الستينيات تقريبا أخذت مؤلفاته تتلون بطابع خاص أكثر براجماتية فظهر مؤلفه «الثورة والثورة المضادة» - Revolution and Counte Revolution (1968) و«سياسة اللاعقل» the Politics of Unreason الذى قدمه بالاشتراك مع إيرل راب Raab (1970) وفاز عنه بجائزة ميردال بالاضافة إلى «العصيان والثورة فى الجامعة» Rebellion in the University (1972) و«الأكاديمى المنقسم» The Divided Academy (1975). وجميعها كتب طورت كثيرا من نظريته فى أنماط الصفوة وفى مجال السياسة بعامة وبخاصة كتابه الذى نشره فى عام 1978 «ظهور الائتلاف فى السياسة الأمريكية» Emerging Coalitioin in American Politics ثم كتابه الذى ألفه بالاشتراك مع وليم شنيدر Schneider بعنوان «أزمة الثقة: العمس والإدارة والحكومة فى عقلية الجماهير» The Confidence Gap Business, Labor and Government in the Public Mind الذى نشر عام 1983 . وكان يدور حول تدهور الثقة لدى الجمهور الأمريكى فى كل المؤسسات الرئيسية فى الفترة من منتصف الستينيات حتى أوائل الثمانينيات وعموما فقد كان لمؤلفاته تأثير كبير فى علم الاجتماع وعلم السياسة لدرجة أن مؤلفاته ترجمت إلى 18 لغة من لغات العالم ومن بينها اللغة العربية.

★ ★ ★

من الرواد الذين اهتموا بالنظرية الاجتماعية وشغلتهم أنماط الفعل والتفاعل الاجتماعيين كأساس لتكوين العلاقات الاجتماعية فأكد على حقيقة أنه لكي نفهم المجتمع أو أى نسق من الأنساق الاجتماعية فلا بد أن يتوجه الاهتمام إلى أنماط التفاعل المنتظمة والثابتة ولهذا تركز همه فى محاولة صياغة مجموعة من المفاهيم والتصورات المترابطة التى تمكن من دراسة الأفعال الاجتماعية الواقعية ولهذا وضع نمودجا بنائيا حدده تحديدا اجرائيا واعتقد أنه يساعد كثيرا فى فهم وتحليل الجماعات الاجتماعية وتفسير التكامل فيما بين العناصر والمكونات التى تدخل فى تكوين هذه الجماعات كشرط لازم لتحقيق ما قد تتمتع به من تماسك ووحدة.

ولكن لوميز فى مقياسه الاجرائى من الملاحظ أنه قد اعتمد كثيرا وربما بشكل طاغ على المفهومات السيكلوجية أكثر منه الاعتماد على مضامين النظريات الاجتماعية مثال ذلك مفاهيم الشعور والنفس والانجاز والسلوك المعيارى الأمر الذى يعكس اهتمامه بالنظرية النفسية وبالاتجاهات السيكلوجية خاصة وأنه كثيراً ما يضع الاهتمام بدراسة موضوع التغير الاجتماعى فى مرتبة أو مكانة ثانوية مثله فى هذا تولكوت بارسونز. وربما يرجع كل هذا إلى فهمه الخاص لعلم الاجتماع الذى اعتبر أن موضوعه الرئيسى الذى يستأهل الاهتمام هو السلوك الاجتماعى وسلوك الفرد مع الآخرين مقتربا بذلك كثيرا من علماء مثل لندبرج Lundberg ودود Dodd وزيف Ziph. وعلى العموم فقد استخدم نمودجه القياسى فى تحليل أعمال عدد من كبار المنظرين الذين اشتمل عليهم كتابه المعنون «النظريات الاجتماعية الحديثة» Modern Social Theories (1961) من بينهم هوارد بيكر وكينجزلى دافيز وهومانز وميرتون وبارسونز وسوروكين وروبين ويليامز. وتأسيسا على هذا فقد لا يكون ثمة تحامل إذا قلنا أن هذا الكتاب لا يعتبر بمثابة نظرية اجتماعية جديدة بقدر ما هو تحليل فحسب أو نسق فكرى قد يساعد فى المقارنة وتقييم الكتابات التى يطبق عليها: وإن كانت الفائدة من هذا الكتاب من الصعب أن تكتمل دون الالتفات إلى كتابه الأخر الذى سبقه بعام تحت عنوان «الانساق الاجتماعية: مقالات فى

Social Systems: Essays in Their Persistence and استمرارها وتغيرها» Change (1960) وهما كتابان اعتمدا على القياس السوسيومتري لتحليل مكانات الأفراد ومراكزهم الاجتماعية في محاولة الوصول إلى معرفة ما تتمتع به الجماعة من تكامل وتماسك اجتماعيين. وربما في هذا تكمن قيمتهما الحقيقية.

★ ★ ★

روبرت هارى لوى أنثروبولوجى أمريكى من أصل نمساوى كان واحدا من جيل الكبار الذين أثروا تأثيرا كبيرا فى النظرية الأنثروبولوجية بعامة والنظرية الأثنولوجية بخاصة إذ حفلت كتاباته التى قدمها على مدى نحو أربعين عاما على كثير من الرؤى والمواقف النظرية الثاقبة بالإضافة إلى نتائج دراساته وبحوثه التى أجراها على العديد من قبائل السهول الأمريكية.

ولد روبرت لوى فى عام ١٨٨٢ فى فيينا ودرس على أيدي فرانز بواس فى جامعة كولومبيا وفى جامعة نيويورك وحصل على الدكتوراه فى ١٩٠٨ ومن هذا التاريخ وحتى عام ١٩٢١ كان على صلة وثيقة بالمتحف القومى الأمريكى للتاريخ الطبيعى فى نيويورك وهى فترة زاهية فى تاريخ المتحف الذى كان كلارك ويسلر Wissler مديرا له آنذاك. حيث قام لوى بالعديد من رحلاته الميدانية الرئيسية إلى سهول أمريكا الشمالية حيث درس قبائل الكراو Crow وبلاك فوت Blackfoot والشوشون Shoshone وكانت جميعها موضوعا لأهم دراساته النظرية والميدانية التى قدمها حتى نهاية الأربعينيات تقريبا من القرن الماضى وهى فترة ظهرت خلالها بوضوح رؤاه الساندة لنظريات الانتشار الثقافى عموما على الرغم من رفضه الصريح للمنهج الظنى التطورى القديم ومشايخته للمدرسة الأثنولوجية الأمريكية الحديثة متأثرا فى ذلك بفرانز بواس ومتخذا فى الوقت نفسه الاتجاه الذى سار فيه أمثال كروبير Croeber. كما ظهرت فى هذه الفترة أيضا اهتماماته بعلم النفس الأمر الذى انعكس بدوره فى كتاباته وبخاصة فى مؤلفه «تاريخ النظرية الأثنولوجية» The History of Ethnological Theory (١٩٢٧) الذى أخضع فيه للدراسة والتجليل كتابات عدد من أصحاب الاتجاهات التطورية القديمة منهم فوسيتل دو كولانج وباحوفن ومورجان وماكلينان وتايلور وكلهم من أصحاب النزعات التاريخية الأثنولوجية وإن كان يعتبرهم من أوائل الوظيفيين نظرا لدراساتهم السمة الثقافية (الظاهرة) فى علاقتها وارتباطها بالسياق الكلى. علاوة على انتقاده العنيف لموقف ليفى برول من العقلية البدائية مؤكدا قدرة الإنسان البدائى على التفكير المنطقى (عكس ليفى برول) فى حدود فلسفته وموقفه من الحياة.

والواقع أنه خلال هذه الفترة التي كان فيها استاذاً للأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا (١٩٢١ - ١٩٥٠) ظهرت ربما أكثر كتبه أهمية والتي مهدت الطريق أمامه لأن ينتخب رئيساً للجمعية الأمريكية للفولكلور (١٩٠٦ - ١٩١٧) ورئيساً للجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا (١٩٢٥ - ١٩٣٦) بالإضافة إلى رئاسته تحرير مجلة الأنثروبولوجيا الأمريكية في السنوات من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٣. ونتيجة لجهوده فقد منحته جامعة شيكاغو الدكتوراه الفخرية (١٩٤١) عرفانا وتقديراً لأستادتيته.

وهناك مجموعة من الأفكار الرئيسية التي ارتادها لوى وحددت مسارات فكره كما عكسته أعماله النظرية والميدانية. فقد اهتم اهتماماً فائقاً بالثقافة والتغايرات الثقافية لفهم المجتمع. ومع أنه قد ظهر له في عام ١٩١٧ مؤلفه «الثقافة والأثولوجيا» Culture and Ethnology ومؤلفه «المجتمع البدائي» Primitive Society (١٩٢٠) ثم كتابه «التنظيم الاجتماعي» Social Organization (١٩٤٨) حيث تناول في هذه الكتب مختلف الوسائل والأساليب المستخدمة في إنتاج الطعام وكذلك أنماط الإقامة وقواعد التوريث وهو ما اعتبره مسئولاً عن التغايرات في أشكال التنظيم الاجتماعي علاوة على إلقاءه الضوء على نظام طبقات العمر وبخاصة في علاقة الرجل بالمرأة وما ارتبط بكل هذا من نظم الملكية ونظرياتها وبخاصة في المجتمعات البدائية فقد اعتبر الكثيرون أن كتابه «المجتمع البدائي» بالذات هو الذي كان له تأثيره الزائد على الأنثروبولوجيا لإثارته كل المشكلات المرتبطة بالتركيب الاجتماعي ولأنه تناول بشكل واسع انساق القرابة والملكية والعدالة والحكومة وما إلى ذلك من قضايا توضح ملامح هذا المجتمع والتصورات الأنثروبولوجية المرتبطة به وبخاصة فكرته الأساسية القائلة بأن الدين والأساطير ترجع أصولهما إلى الأحلام التي ذهب إلى أن لها أساسها ومقوماتها البيولوجية وذلك في الوقت الذي ذهب فيه إلى أن الاختيار الثقافي كجانب من الاختيار الطبيعي كثيراً ما يلعب دوراً ويتدخل في تحديد المزايا التي تساعد على التقدم والرقى على نحو ما ظهر في كتابه «هل نحن متحضرون» Are We Civilized (١٩٢٩).

وعلى العموم فقد عاد لوى فى سنوات حياته الأخيرة إلى الاهتمام بالقبائل الأمريكية وإنما إلى جانب هذا اهتمامه أيضا بالثقافة الألمانية فقدم «الشعب الألماني» The German People (١٩٥٤) و«نحو فهم ألمانيا» - Toward Under-standing Germany فى العام نفسه وحيث تناول فى هذا الكتاب أثر الحرب على الشخصية بينما ظهر كتابه «مختارات فى الأنثروبولوجيا» فى عام ١٩٦٠ ليتوج به كتاباته وأعماله.

★ ★ ★

جيورج لوكاتش فيلسوف مجرى ماركسى وكاتب وأديب كان له أبعد الأثر فى الفكر الشيوعى الأوروبى فى النصف الأول من القرن العشرين. ولد فى بودابست فى عام ١٨٨٥ لأسرة يهودية ثرية فقد كان والده أحد رجال المال والبنوك ومع ذلك فقد أصبح يدين بالماركسية منذ وقت مبكر وانضم إلى الحزب الشيوعى المجرى فى عام ١٩١٨. درس القانون ولكن بعد أن تأكد له ميله للعلوم الاجتماعية ذهب إلى برلين وواظب على حضور محاضرات جورج زيميل Simmel. وبعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة بودابست (١٩٠٦) عاد مرة ثانية إلى برلين (١٩٠٩) حيث عاش فترة ذهب بعدها إلى هيدلبرج (١٩١٢ - ١٩١٥) حيث تابع دراساته الفلسفية على أيدي هنريش ريكتر Rickert وبدأ يتعرف على حلقة ستيفان جورج وعقد عدة صداقات مع بعض الماركسيين منهم إميل لاسك Lask والماركسى اليوتوبى إرنست بلوخ Bloch وتمخضت هذه الفترة عن أروع مقالاته الأدبية التى جمعت فى كتاب بعنوان «نظرية فى الرواية» The Theory of the Novel (١٩١٦) عنى فيه بمناقشة القيم الجمالية فى الأدب من خلال تصور تاريخى ساعده على بلورة رؤيته للرواية التى نظر إليها كنتاج برجوازي فى عالم لا معنى له على العكس من الملحمة القديمة. وعلى كل، فما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى عاد إلى بودابست ولكن يملؤه الألم لانتصار الرأسمالية الغربية وبسبب قيمها ومثالياتها النفعية وبعد ما أقصى النظام الشيوعى المجرى فى عام ١٩١٩ حيث كان يعمل مستشارا فنيا ترك المجر هاربا إلى فيينا حيث بقى لمدة ١٠ سنوات أشرف خلالها على تحرير مجلة العالم الشيوعى كما انضم إلى عضوية الحركة السرية المجرية.

وباعتباره أحد الماركسيين الجدد فقد أسهم إسهاما كبيرا فى صياغة نسق ماركسى لعلم الجمال يعارض التدخل السياسى فى العمل الفنى ومنحازا بذلك إلى جانب النزعة الإنسانية كما طور فى الوقت نفسه النظرية الماركسية فى الاغتراب الذى يصاحب نمو المجتمع الصناعى الحديث. وتعتبر مجموعة مقالاته التى كتبها ما بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢٢ وجمعها تحت عنوان «التاريخ والوعى الطبقي» History and Class Consciousness (١٩٢٣) قراءة جديدة لفكر كارل ماركس حاول فيه أن يظهر

نظرية في الوعي الطبقي كما أضاف هذا العمل دفعة جديدة لعلم اجتماع المعرفة (ترجم الكتاب إلى الانجليزية في ١٩٧١) وإن كان قد هوجم على أى الأحوال بسبب انحرافه عن النظريات التقليدية الماركسية اللينينية مما جعله يحاول أن ينفذ يديه منه بالرغم من أنه يعتبر إضافته الحقيقية للنظرية الماركسية ولكن كتاباته أصبحت بوجه عام أكثر التصاقا وتعبيرا عن وجهة النظر السوفياتية الرسمية.

كان لوكاتش في برلين في الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٣ وكان بعيدا عن يد النظام النازي لفترة من الوقت مما أغراه بالانضمام إلى معهد ماركس وانجلز في موسكو (١٩٣٠ - ١٩٣١) ولكن في عام ١٩٣٣ غادر برلين مضطرا وعاد إلى موسكو لينضم إلى معهد الفلسفة التابع للأكاديمية السوفياتية للعلوم حيث انشغل بإعادة صياغة مفهوم الواقعية النقدية وبدراسة عن هيغل وعن الرواية الأوروبية. ومع أنه تمتع بمكانة مرموقة خلال العامين ٢٥ و ١٩٣٦ فإن هذا لم يحل بينه وبين معاداته للستالينية التي زجت به في السجن في ١٩٤١. ولكن في نهاية الحرب عاد إلى بودابست وأصبح عضوا في البرلمان وأستاذا لعلم الجمال في جامعة بودابست حيث أكمل دراسته للتاريخ الماركسي ولم تمض سنوات حتى صار علما من أعلام الصفوة المثقفة المجرية فاختير وزيرا للثقافة أثناء الثورة.

ولقد كتب لوكاتش أكثر من ٣٠ كتابا علاوة على مئات المقالات والمحاضرات التي ألقاها ونشرها. وبالرغم من أنه قد قبض عليه أكثر من مرة واضطر إلى الرحيل إلى رومانيا لكنه انشغل بعد السماح له بالعودة ثانية إلى بودابست (١٩٥٧) ببعض أعماله الرئيسية فظهر مؤلفه الضخم عن علم الجمال *The Peculiarity of Aes the tics* (١٩٦٣) في عشرة أجزاء وكتابه في الوجود الاجتماعي *The Ontology of Social Existence* (١٩٧١ - ١٩٧٣) علاوة على كتاباته عن فلسفة هيغل وعن الفلسفة الوجودية واهتماماته المتشعبة بالجوانب والمشكلات النظرية والمنهجية في علم الجمال.

★ ★ ★

يعتبر عالم الاجتماع الأمريكي جورج لندبرج من أبرز ممثلى الاتجاه الوضعى الحديث الذى يهدف إلى تحديد الاجراءات المنهجية فى ضوء الاتفاق والاختراع الواضحين على تحديد المفهومات من خلال البحث عن الدلائل التجريبية أو الاحصائية التى تمثل الظواهر الاجتماعية وتصورها فى ضوء مجموعة من الاجراءات المحددة.

بتعبير آخر يمكن القول إن عدم وجود اتفاق عام حول المفهومات العامة والأساسية فى العلم واستخدام العلماء هذه المفهومات بمعان متفاوتة وهو ما يصدق حتى بالنسبة إلى العلماء والباحثين الذين ينتمون إلى الاتجاه الواحد كان أمرا شغل تفكير لندبرج وأرقه كثيرا لأنه يندر بالقضاء على الاتجاه العلمى ومن ثم فإن الوسيلة الوحيدة لتفادى هذه النهاية المؤسفة للعلم هى تحديد المفهومات تحديدا موضوعيا عن طريق تعريفها وتحديدها تحديدا اجرائيا. والطريقة المثلى لتحقيق هذا تتمثل فى القياس الاجتماعى (السوسيومتري) الذى توحد بالاتجاه الاجرائى إلى حد بعيد.

وقد ولد لندبرج عام ١٨٩٥ وعمل فى عدد من الجامعات الأمريكية إلى أن شغل منصب أستاذ الاجتماع فى جامعة واشنطن التى استمر فيها لسنوات طويلة. كما اختير فى عام ١٩٤٢ رئيسا للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع وأصبح أستاذا لعلم الاجتماع فى جامعة بتسبرج إلى أن توفى عام ١٩٦٦ وهى رحلة تطور خلالها فكره ومنهجه الذى تجسد فى دعوته إلى مناصرة الاتجاه الكمي والتحديد الاجرائى وصوغ التعميمات الكمية.

هذه الدعوة لقيت ترحيبا من الباحثين فى علم الاجتماع فأمكنهم استخدام أنواع كثيرة من المقاييس فى بحوثهم منها المقاييس الديموجرافية لقياس أشكال السلوك الاجتماعى ومقاييس الذكاء واتجاهات الأفراد وإن ظلت فى مقدمتها المقاييس السوسيومترية التى استخدمت بنجاح فى قياس العلاقات والعمليات الاجتماعية كما تظهر حتى فى الوحدات الاجتماعية الكبيرة كالجماعة المحلية والمدينة والدولة.

ومع أن البعض من العلماء قد توسعوا بشكل لافت في تحديدهم للاتجاه الاجرائى وقالوا بوجود اتجاه اجرائى مادى يستخدم فى تحديد المفهومات المادية واتجاه اجرائى عقلى يستخدم فى تحديد المفهومات العقلية مثل مفهوم الاتصال الرياضى الذى تستخدم فى تحديده مجموعة من الاجراءات العقلية التى يتحدد بمقتضاها مدى الاتصال بين مجموعة من المقادير (بروجمان على سبيل المثال) فإن ما يبدو بوضوح هو أن لندبرج أعطى للاتجاه العقلى أهمية منهجية تفوق ما للاتجاه الآخر ومن ثم فقد انتهت كافة القواعد المنهجية لاتجاهه إلى حث الباحثين على استخدام الملاحظة الموجهة والتجارب والقياس وما تتطلبه تلك الاستخدامات من أدوات لجمع المادة والمعطيات كالاستبارات والمقاييس الثابتة الصادقة والاستبيانات المقننة مع ما يستلزمه تحليل النتائج من أساليب احصائية ورياضية فبدون جمع المادة وفق المبادئ العلمية وتصنيف هذه المادة فى أشكال السلوك وأنماطه المعينة فإن الحالات الفردية ستكون عديمة الجدوى أو النفع لأى غرض علمى. ويبدو هنا مدى اتفاقه مع ماكس فيبر فى أن العلم لا يستطيع كما لا يجب أن يشغل نفسه بصوغ الأحكام القيمية لأن ليس لها علاقة بموضوعية العلم. واتساقا مع هذا التصور فقد كان لندبرج واضحا فى عدم اعترافه بمصطلحات القيم والدوافع والمشاعر والغايات وما إلى ذلك من مفهومات رغم تأكيده المستمر على أهمية دراسة القيم التى عرفها بدورها بطريقة اجرائية وذهب إلى أنها تلك التى يسلك الأفراد على أساسها فى سلوكهم.

وهناك ثلاثة جوانب رئيسية تحدد منهجيته فى البحوث الاجتماعية والضرورات اللازمة لوضوح وتكامل اطاره التصورى. فمن ناحية أبرز لندبرج الأهمية البالغة لصياغة الفروض ذاهبا إلى أنها تعطى رؤية أو وجهة نظر محددة للبحث وتفيد فى تحديد الاتجاه الذى يتعين على الباحث السير فيه وإبراز الحقائق التى يتعين التركيز عليها أو التى يجب تجاهلها. وبمعنى آخر ذهب لندبرج إلى أن استخدام الفروض مما يلقى الضوء على كيفية جمع المادة وكيفية التحقق مما تكشف عنه أو تشير إليه.

ومن الناحية الثانية أبرز لندبرج حقيقة أن كل العلوم بما فيها العلوم الاجتماعية هى أداة أو وسيلة تكيفية وأن أبرز المفاهيم وربما أهمها مفهوم الطاقة

أو الحركة التي تتحدد المواقف الاجتماعية وأدوار الأفراد في ضوءها ولهذا يلعب الاتصال بأشكاله المتنوعة دورا حيويا في تحديد وفهم المواقف المختلفة سواء أكانت مواقف مجمعة أو مواقف مفردة. أما الناحية الثالثة فتتمثل في ميله إلى تبني نماذج في العلوم الطبيعية.

في كتابه المشهور «أسس علم الاجتماع» Foundations of Sociology الذي يعتبر عمله الرئيسي وأفضل كتبه عبارة لها دلالتها ومغزاها تقول (إن مصطلح القانون العلمي يمكن أو يجب أن يعنى في العلوم الاجتماعية نفس ما يعنيه «بالضبط» في أى من العلوم الأخرى).

ولاشك أن العبارة تعكس نوعا من المبالغة بقدر ما تعنيه كلمة (بالضبط) وإن كان من المهم القول مع ذلك أنها عبارة صحيحة وصادقة بوجه عام. صحيح أن هناك اختلافات بين الحتميات الفيزيقية والحتميات الاجتماعية ولكن الصحيح أيضا أنها - كما يذهب لندبرج - اختلافات في الدرجة أكثر منها في النوع. بل وأكثر من هذا أن الحتمية في العلوم الطبيعية قد تغيرت إلى حد أنها أصبحت أقرب إلى المفهوم في العلوم الاجتماعية. ولهذا فهو ينتهى إلى نتيجة أساسية تتعلق بدور القياس في نشأة القانون العلمي حيث يقرر أن القانون العلمي يندر اكتشافه بالقياس الأمر الذى يتوجب معه وجود النظرية الكيفية التى تحدد للباحث موضع المشاهدة وهذه الناحية أكدها في مؤلفه الذى أصدره بعنوان «البحث الاجتماعى» Social Research (١٩٤٢) حيث ذهب إلى أن المقياس الكمي ضرورة لا تقل عنها ضرورة وجود النظرية إذا أراد العلم تقديم وصف وتحليل أكثر دقة للظواهر التى يدرسها الباحثون.

لقد كان لندبرج يكن تقديرا كبيرا لعلم الاجتماع والمشتغلين به خاصة والعلوم الاجتماعية بصفة عامة. وبالرغم من وضوح هذه الوضعية في كل كتاباته وهو ما يظهر بشكل جلى في كتابه «علم الاجتماع» Sociology (١٩٥٤) فقد عاد في أواخر حياته يتحدث عن الموضوع نفسه عندما مضى يتساءل في كتابه «هل بمقدور العلم انقاذنا Can Science Save Us (١٩٦١) وإذا كان يقصد بالعلم علم الاجتماع

بالذات فقد جاءت اجابته عن التساؤل شاملة وحاسمة في أن واحد عندما اعتبر العلم والمشتغلين به ضرورة من ضرورات المجتمعات الصناعية المتقدمة في بلدان العالمين الأول والثانى الأمر الذى لا يختلف عليه اثنان.

★ ★ ★

اشتهرا بهذا الارتباط في اسميهما فهما الزوجان روبرت ستون ليند وزوجته هيلين ليند أو ميريل Merrell كما كان اسمهما قبل الزواج. والاثان معا من أبرز علماء الاجتماع الذين عملوا معا كفريق عمل متناغم فقدما الدراسة الشهيرة باسم «ميدلتاون» Middletown (١٩٢٩ و ١٩٣٧) التي أصبحت من عيون التراث الاجتماعي الكلاسيكي باعتبارها أول دراسة منظمة لفهم مجتمع أمريكي محلي في ضوء استخدام مناهج الأنثروبولوجيا الثقافية والملاحظة الميدانية لمظاهر التدرج الاجتماعي حيث قسما المجتمع إلى طبقتين لكل منهما وظائفه الأساسية وهي طبقة رجال الأعمال وطبقة العمال الأمر الذي يكشف عن وجود ما اعتبره قادرا قليلا من التكامل في المجتمع.

ولقد ولد روبرت ليند في ولاية إنديانا عام ١٨٩٢ ونال تعليمه في جامعتي برينستون وكولومبيا بينما زوجته هيلين كانت تصغره بعامين (١٨٩٤) وولدت في «لاجرانج La Grange في أيلنوي Illinois وتوفيت بعد وفاة زوجها باثني عشر عاما (١٩٨٢).

وخلال هذه الرحلة اضطلع روبرت ليند في أثناء الحرب العالمية الأولى بتحرير Publisher Weely (١٩١٤ - ١٩١٨) وبعد ذلك عمل في بعض المؤسسات ودور النشر في مدينة نيويورك. وفي الفترة من ١٩٢٢ - ١٩٢٦ أشرف على إحدى الدراسات الاجتماعية لمعهد البحوث الاجتماعية والدينية وقام بعد ذلك بتدريس علم الاجتماع في جامعة كولومبيا (١٩٢٦) كما نشر مؤلفه «لماذا المعرفة» Knowledge for what? (١٩٣٩) وهو كتاب أبرز فيه طبيعة التناقضات التي يعيشها المجتمع الأمريكي والصراعات التي تأخذ بفكر وكيان الأفراد وهم مشدودون إلى التطلعات التي تغرسها في نفوسهم وعقولهم الدعاية والإعلان فبقوا يتأرجحون بين لهدف طموحاتهم ووطأة تطلعاتهم وبين قدراتهم المحدودة وإمكاناتهم الضئيلة. ويخلص إلى أن الثقافة الأمريكية مما يعتبر مصدرا لكثير من المشكلات التي تتطلب عملية مواجهتها تضافر الذكاء والجهود العلمية وهو ما يتعثر العلماء والباحثون في الوفاء

به وهى نتيجة لا تختلف كثيرا عما انتهى إليه الجزء الأول من دراسته «ميدلتاون» السابق الإشارة إليها فى محاولته لفهم المجتمع الأمريكى ومحاولته التعرف على قدرة النظام الاجتماعى على مواجهة احتياجات الأفراد.

ولقد تزوج روبرت ليند من ميريل فى الثالث من سبتمبر عام ١٩٢١ ونجحت فى التوفيق بين حياتها كزوجة وبين عملها فى سارة لورانس كوليج Sarah Lawrence فى برونكسفيل Bronxville فى نيويورك (٢٩ - ٦٤). أما فيما يتعلق بكتابتها التى تقردت هى بانجازها فهناك «عن الحياء والبحث عن الهوية» On Toward Shame and the Search for Identity (١٩٥٨) و«نحو الكشف» Toward Discovery (١٩٦٥). وبالرغم من أن هذه الكتابات جميعها سواء تلك التى قدمهاها مشتركين أو كل على حدة قد لقيت فى حينها تقديراً فائقاً من الباحثين والقراء فإن دراستهما «ميدلتاون» هى التى مازالت إلى اليوم تشير إلى صاحبها كدليل ناطق على تمكنهما وتفوقهما.

وكنت قد أشرت من قبل ربما بطريقة عابرة إلى أن ميدلتاون قد نشرت فى جزئين (كتابين) منفصلين ومنذ البداية حدد المؤلفان الفرض منها وهو على حد تعبيرهما دراسة الحياة الاجتماعية فى إحدى المدن الأمريكية التى يمكن أن تعتبر ممثلة لكل المدن الأمريكية الأخرى حيث تم تسجيل الظواهر الاجتماعية التى تناولتها الدراسة الحقلية (١٩٢٤ - ١٩٢٥) التى تم نشر نتائجها فى الكتاب الأول بعنوان «ميدلتاون: دراسة فى الثقافة الأمريكية المعاصرة» Middletown A Study in Contemporary American Culture (١٩٢٩). أما الكتاب الثانى فهو بمثابة دراسة تتبعية تمت على المجتمع نفسه بعد سنوات حيث أجريت الدراسة الحقلية عام ١٩٢٥ لدراسة المجتمع (ميدلتاون كاسم مستعار يشير إلى المدينة الحقيقية) «مونشييو Muncio»، لملاحظة آثار الكساد الاقتصادى (فى الثلاثينيات) على المدينة حيث تركز الاهتمام بصفة خاصة على البناء الطبقي وعلاقات القوى السياسية والاقتصادية. وفى ضوء هذا جاء نشر هذا الكتاب الثانى بعنوان «ميدلتاون فى التجول: دراسة فى الصراعات الثقافية» Middletown in Transition: A Study in Cultural Conflicts (١٩٢٧).

إن ما لاشك فيه هو أن روبرت ليند وزوجته هيلين ليند من أبرز العلماء الذين اهتموا بقضية التدرج الاجتماعى ومن بين العلماء الذين يتمتعون بالنظرة النقدية الفاحصة فى ضوء الوعى التام بكل مظاهر عدم المساواة الاجتماعية وعدم عدالة توزيع القوة والثروة بين الطبقات والجماعات الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى ونجح بذلك فى اعطاء صورة صادقة للمجتمع موضوع دراسته معتمدا على منهجية وتصور واضحين حاول فيما الجمع بين التحليل الماركسى والفيبرى لتحليل البناء الطبقي للمجتمع بكل مكوناته وعناصره. ومع أن كل هذا مما يعتبر بحق اضافة لتراث علم الاجتماع السياسى فربما كان الجديد الذى ينبغى أن تتذكره دائما الأجيال الأصغر من الباحثين هو معالجتهم ونظرتهم للطبقة الوسطى التى نظرا إليها على اعتبار أنها قبيلة بالمعنى الأنثروبولوجى. وهذه ناحية تكشف بلاشك عن مدى إهمال الباحثين لدراسة طبيعة الانقسامات والتقلبات الاجتماعية من ناحية وإهمالهم أيضا لظاهرة الوعى الطبقي وعدم نضوجه لدى الطبقة الوسطى على وجه الخصوص.

★ ★ ★

عالم الاجتماع الأمريكى الاسكتلندى الأصل روبرت هاريسون ماكيفر يعتبر واحدا من كبار العلماء الذين قدموا اسهاما كبيرا فى مجال النظرية فى علم الاجتماع النظرى من خلال كتاباته المتشعبة التى غطت معظم مناحى ومجالات الدراسة السوسيوولوجية فقد كتب فى النظرية الاجتماعية مثلما كتب فى المناهج والبناء الاجتماعى والتنظيم المعيارى وفى الجماعات الاجتماعية وفى المجتمع وفى التغير الاجتماعى علاوة على كتاباته المتنوعة فى السياسة التى تناول فيها النظرية السياسية والحركات الاجتماعية والضبط الاجتماعى والحرية والثورات إضافة إلى كتاباته المتنوعة فى الاقتصاد والفلسفة والعلوم الاجتماعية التطبيقية وكلها كتب يغلب عليها الطابع النظرى الذى لم يفارقه أبدا .

ولد ماكيفر فى ستورنوى Stornoway باسكتلندا فى شهر إبريل عام ١٨٨٢ ونال درجة الماجستير من جامعة أدنبرة (١٩٠٣) ثم درجة الدكتوراه (١٩١٥) بالاضافة إلى عدة درجات علمية أخرى نالها من جامعات كولومبيا وهارفارد وبرينستون وييل وكانت جامعة كولومبيا هى الجامعة الرئيسة التى ارتبط بها منذ أن تقاعد فى عام ١٩٢٧ . واختير رئيسا للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع كما نال عدة درجات شرفية من هارفارد (١٩٣٦) إلى جانب ما حصل عليه من جوائز نالها عن بعض كتاباته ومؤلفاته من بينها جائزة وودرو ويلسون التى نالها فى الأربعينيات من القرن الماضى .

وماكيفر باعتباره أحد كبار المفكرين الذى اسهموا فى تشييد علم الاجتماع النظرى وتطويره (من بينهم زنانيكى وسوروكين وبارسونز وميلز وغيرهم على سبيل المثال) تميز تفكيره ببعض المنطلقات الأساسية التى يمكن اعتبارها مفاتيح رئيسية لفهمه وفهم مواقفه الفكرية، فهو من بين العلماء القلائل الذين تميزوا بإحساسهم الفائق بتعمد الحياة الاجتماعية وتشابكها وإن كان أسلوبه الأدبى مكنه من التغلب على هذه الناحية بما أقامه من جسور بينه وبين قرائه . ومنذ البداية ارتبط ماكيفر

بمسلمة أساسية قوامها إن الإنسان كائن مبدع ولكنه فى الوقت نفسه من صنع المجتمع وصنع الثقافة واعتبر هذا بمثابة محدد رئيسى لفهم السلوك البشرى بمجالاته المختلفة فهناك المجال المادى ومجال الكائن العضوى ومجال الكائن المدرك أو الواعى ولكل منها خصائصه ودينامياته وإن كانت مترابطة ومتداخلة فى النهاية. وبالرغم من اهتمامه بالمجالات الثلاثة إلا أن معظم اهتمامه كان موجها إلى مجال الكائن الواعى بالذات الذى تبرز فيه مستويات ثقافية وتكنولوجية واجتماعية مما يجعل المجال بمثابة المخزن الثقافى للإنسان. ولما كانت نظريته للمجتمع تتمثل فى أنه شبكة من العلاقات الاجتماعية (وهو هنا لا يختلف عن نظرة علماء الاجتماع الأوائل) فقد تأدى به هذا الفهم إلى أمرين أساسيين هما أولا أنه لكى تكون هناك نظرية كاملة فى السلوك البشرى فلا بد أن تشمل بالضرورة على علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وثانيا أن هذه الغاية تتطلب فهما دقيقا للمفاهيم التى ينطوى عليها كل من هذين العلمين مثل مفهوم المجتمع والمجتمع المحلى والرابطة والسنن الاجتماعية والطبقة والنظام والاتجاهات والمصالح وما إلى ذلك من المفهومات التى يتردد استخدامها. وحيث ظهرت كثير من المشابهات بين ما أوضحه من مفهومات وبين ما ذهب إليه البعض فيما يتعلق بالمفهومات نفسها فثمة انعكاسات لأفكار تشارلس كولى Cooley مثلا ليس فحسب من حيث التشابه المنهجي ولكن أيضا من حيث محاولة ماكيفر تطوير فكرة كولى عن (الأخر) وعن (صورة الذات) وعن الاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع علاوة على التشابه بينه وبين تونيز وتمييزه بين المجتمع والمجتمع المحلى وهو نفس الأساس الذى استخدمه ماكيفر فى التمييز بين المجتمع المحلى والرابطة حيث ذهب إلى أن المجتمع المحلى هو جماعة اجتماعية محددة مرتبطة بمكان معين على حين الرابطة منظمة غايتها خدمة عدد معين من المصالح وبدهى أن المفهوم الأول يستغرق بالضرورة المفهوم الثانى علاوة على كل صور التنظيم الاجتماعى على تعددها وتغايرها. مما يتحتم معه ضرورة التركيز على دور مختلف الأحاسيس والمصالح والاتجاهات الذاتية فى الحياة الاجتماعية.

وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل مؤلفات ماكيفر بسبب تشعب الميادين التى كتب فيها على ما أسلفنا الإشارة ولهذا سنكتفى بذكر بعض منها فى مقدمتها كتابه

«المجتمع المحلى» Community (١٩١٧) الذى تميز بطابعه النظرى وإن كان كتابه الذى ألفه بالاشتراك مع تشارلز بيج Page تحت عنوان «المجتمع: بناؤه وتغييراته» Society: Its Structure and Changes (١٩٣١) هو ما تضمن نظريته السوسيولوجية فى أكمل صورها. ثم تتابعت بعد ذلك مؤلفاته ومن أهمها The Web of Government (١٩٤٧) وكتابه «الأمة والأمم المتحدة» The Nation and the United Nations (١٩٥٩) و«تحول القوى» Power Transformed (١٩٦٤) و«الوقاية من الجناح والتحكم فيه» The Pre-vention and Control of Delinquency (١٩٦٦) و«السياسة والمجتمع» Politics and Society (١٩٦٩) وقد نشر هذا الكتاب قبل وفاته بحوالى عام إذ مات ماكيفر فى نيويورك فى الخامس عشر من شهر يونيو عام ١٩٧٠ .

★ ★ ★

انثربولوجى بريطانى من أصل بولندى يعتبر من أشهر وأهم العلماء فى القرن العشرين وينظر إليه بعامة على أنه مؤسس الأنثربولوجيا الاجتماعية بسبب دراساته الحقلية التى أجراها على شعوب المحيط الباسيفيكي (الهادى). بل إنه يمكن القول أيضا إن الدعائم المتينة للاتجاه الوظيفى لم تتأكد إلا على يديه وفى ضوء دراساته وهو ما أبرزه فى كتابه «النظرية العلمية للثقافة» *A Scientific Theory of Culture* (١٩٤٠) الذى أرسى فيه قواعد المنهج من ناحية والمفاهيم الرئيسية من ناحية ثانية وفى مقدمتها مفهوم الوظيفة والحاجات الاجتماعية والنفسية التى اعتبر أن مهمة أو وظيفة النسق الاجتماعى والنظام الاجتماعى العمل على اشباعها وخاصة الحاجات البيولوجية والحاجات الثقافية.

ولقد ولد برونيسلاو كاسبر مالينوفسكى لأب كان استاذا جامعيا فى عام ١٨٨٤ بمدينة كاراكاو Kraków، فى بولنده وحصل على درجة الدكتوراه فى الطبيعة والرياضيات عام ١٩٠٨ ولكنه تحول إلى الأنثربولوجيا بتأثير قراءته لكتابات السيرجيمس فريزر (Frazer) وخاصة كتابه الفصن الذهبى *The Golden Bough* وهكذا سافر إلى إنجلترا فى عام ١٩١٠ ودرس فى مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية وقضى أربع سنوات حيث تلقى فى جامعة لندن تدريبه فى الأنثربولوجيا على يد الأستاذ سليجمان Seligman كما تتلمذ أيضا فى لندن على يد وستر مارك Wester marck وريفرز Rivers وهوبهاوس Hobhouse ثم سافر فى ١٩١٤ إلى استراليا التى لم يستطع مغادرتها بسبب الحرب العالمية الأولى والقبض عليه باعتباره بولندى الجنسية فمكث ٦ سنوات (١٩١٤ - ١٩٢٠) قام خلالها بدراسته الشهيرة عن جزر التروبرياند Trobriand Islands التى تقع شرق غينيا الجديدة كما تزوج فى ١٩١٩ من ابنة استاذ بالجامعة وبعد عودته إلى إنجلترا عين فى ١٩٢٤ فى جامعة لندن وقام بتدريس الأنثربولوجيا ثم شغل أول كرسي ينشأ للأنثربولوجيا فى هذه الجامعة عام ١٩٢٧ وكان م بين تلاميذه رايموند فيرث وبريستيانى وايفانز بريتشارد وبعد ذلك قام بعدة زيارات للولايات المتحدة حيث درس فى عدد من جامعاتها ولا داهمته الحرب العالمية الثانية قرر البقاء فى الولايات المتحدة للتدريس

فى جامعة ييل Yale وقام خلال العامين ١٩٤٠ و ١٩٤١ بدراسته الحقلية عند الزابوتيك Zapotec فى المكسيك.

وهناك بديهيتان رئيسيتان ينطلق منهما تفكير مالينوفسكى الذى يرى الكثرون أنه قد تمت على يديه ملامح الاتجاه الوظيفى البنائى. البديهية الأولى أن كل ثقافة - بصرف النظر عن مدى تقدمها أو تخلفها - يجب أن تشبع الرغبات والحاجات البيولوجية للإنسان وبذلك توجد فرصة حقيقية للاستقرار ولتقدم المجتمع . أما البديهية الثانية فهى أن الاتجاه الثقافى ما هو إلا تدعيم آلى وتلقائى للفسىولوجيا البشرية وكان لهاتين البديهيتين أثرهما الكبير فى دفع الدراسات الأنثربولوجية وإن كان البعض يعتبر أن رادكليف براون بالذات هو صاحب أكبر تأثير فى النظرية الوظيفية البنائية. أما الثقافة فقد ذهب مالينوفسكى إلى أنها تؤلف وحدة عضوية حيث تعتبر العادات والمعتقدات الاجتماعية صوراً ومظاهر جزئية صدرت عن وحدة النسق الكلى للبناء الثقافى المتكامل نظماً ووظائف.

والواقع أنه ارتكازاً على هذا الفهم تأكدت لدى مالينوفسكى العلاقة بين فكرة الوظيفية وفكرة العلية (السببية) وذلك على اعتبار أن وظيفة النظام فى النسق الاجتماعى هى دوره وعلته التى تفسر سائر الوظائف فى الانساق الاجتماعية الأخرى والتى يصل الأنثربولوجى إليها عن طريق تحليله الوظيفى لسائر انساق البناء الاجتماعى بمعنى أن صورة النظام هى وظيفته لأن هناك ارتباطات سببية وعلاقات تربط النظم الاجتماعية بعضها ببعض فعندما نتكلم عن وظيفة النظام فإنما نؤكد دوره فى البناء الثقافى والاجتماعى.

وليس من شك فى أن هذا المضمون الاجتماعى لفكرة العلية ونجاح مالينوفسكى فى استخدام فكرة العلية استخداماً اجتماعياً يربطها بفكرة الدور الوظيفى للنظام وللنسق الاجتماعى متأثرة بدرجة أو بأخرى بفكر دور كايم وهو يسعى إلى نظرية متكاملة لتفسير الظواهر. ومع أن مالينوفسكى نفسه يعترف بتقديره العميق لدور كايم وسائر أعضاء المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع وفى مقدمتهم مارسيل موس Mauss إلا أن هذا التقدير لم يمنعه من أن ينتقد بل ويرفض تماماً تصوراتهم المجردة عن المجتمع ويركز بدلاً من ذلك على الفرد. وهذه ناحية اعتبرها مدخلاً أكثر واقعية بالرغم من أن نظريته الوظيفية تصر على المبدأ

الأساسى الذى يذهب إلى أنه فى كل نمط من أنماط الحضارة نجد أن كل عادة وكل شيء مادى أو فكرة أو معتقد يعمل على كفاية وظيفة حيوية معينة ومن ثم فلن يتسنى فهم أى ثقافة إلا عن طريق فهم هذه الوظائف والكيفية التى تعمل وتترابط بها.

بهذه الحاسة التى تفوق بكثير ما نجده عند غيره من العلماء (من بينهم دوركايم نفسه) مضى مالينوفسكى يتحدث عما يتعين على المجتمع الإنسانى أن يكون عليه على الرغم من أن المجتمع عنده كان فى الأغلب المجتمع البدائى الذى جرت فيه أبحاثه ودراساته. وإذا كانت العادة قد جرت على تصنيفه كواحد من رواد بل عمالقة الوظيفيين وهذا صحيح إلى أبعد الحدود فإن الصحيح أيضا أنه وظيفى من نوع مغاير أو بالأصح من نمط يختلف تماما عما نلتقى به لدى دوركايم مثلا أو حتى رادكليف براون. فعلى حين سعى هؤلاء إلى تفسير النظم وشرح وظيفتها وعملها بتبيان اسهامها فى الحفاظ على حياة المجتمعات وبقائها فقد سعى مالينوفسكى إلى ذلك بتوضيح الكيفية التى تقابل بها احتياجات الإنسان وهذه التفرقة هى مناط الاختلاف بين ما يطلق عليه الوظيفة المكانية أو المجتمعية Societal Functionalism وبين الوظيفية النفسية والأخيرة هى التى قدر لها أن تصبح وجها حقيقيا لامعا لعلم النفس السلوكى.

ويقدر ما يغرى هذا بالحديث عن كل أعمال مالينوفسكى تفصيلا فإن هناك ما يحول بالفعل دون تحقيقه أولا لكثرتها وتعددتها وثانيا لأن البعض من هذه الأعمال قد نشر بعد وفاته (١٩٤٢) بسنوات ويصعب الاطمئنان إلى سلامة ترجمتها عن البولندية. وعلى أى الأحوال فربما كان فى الإحاطة بأهم أعماله التى أجراها عن جزر التروبرياندا ما قد يعطى فكرة واضحة عن تفكيره بجوانبه المتشعبة خاصة وأنه لم يقدم نتائج دراسته عن هذه الجزر فى كتاب واحد كما يفعل البعض وإنما قدمها فى عدة كتب عالج فى كل كتاب منها موضوعا رئيسيا فى ضوء علاقاته بطابع الحياة وأسلوبها ونمطها ككل.

الكتاب الأول عن سكان جزر التروبرياندا هو Argonauts of Western Pacific نشره فى عام ١٩٢٢ وهو دراسة للنشاط الاقتصادى بين سكان ميلانيزيا الأصليين ويعطى صورة للأشكال الاقتصادية والتجارية بين القبائل حيث يظهر مبدأ التكامل بين النظم المختلفة من خلال حديثه عن ملامح التنظيم الاجتماعى

والظواهر والملاحق الثقافية كالسحر والدين والأساطير وارتباطها جميعا بهذه النظم الاقتصادية التي يبرز فيها نظام الكولا Kula كنوع من تبادل السلع والمنتجات وهي دراسة استفاد فيها كثيرا من دراسة مارسيل موس عن الهدية.

الكتاب الثانى بعنوان «الحياة الجنسية عند المتوحشين فى ميلانيزيا الجديدة»
The Sexual Life of Savages in New-Western Melanesia (١٩٢٩) ويدور حول
العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة علاوة على عادات الأهالى ومعتقداتهم المرتبطة
بالزواج والطلاق والأحلام والحب والأساطير والعلاقة بين عالم الأرواح وانجاب
الأطفال وما إلى ذلك. وإن كان قد سبق هذا الكتاب نشر كتاب آخر بعنوان «الجريمة
والعرف فى المجتمع المتوحش» Crime and Custom in Savage Society (١٩٢٦)
وهو عبارة عن دراسة ممتعة للقانون البدائى وللجريمة والعقاب فى ذلك المجتمع.
وكذلك نشر فى العام نفسه كتابا بعنوان «الأسطورة فى علم النفس البدائى» Myth
in Primitive Psychology (١٩٢٦) ثم فى العام الذى يليه (١٩٢٧) كتابا وثيق الصلة
تحت عنوان The Father in Primitive Psychology. ثم فى أواخر حياته نشر
كتابين أولهما أكمل به سلسلة كتبه عن الترويرياند تحت عنوان Coral Gardens and
Their Magic (١٩٣٥) ثم The Foundation of Faith and Morals (١٩٣٦). وإن
كان قد نشر له بعد وفاته واحد من أهم كتبه بعنوان «السحر والعلم والدين ومقالات
أخرى» Magic, Science and Religion and Other Esseys (١٩٤٨).

★ ★ ★

يعتبر كارل مانهايم من وجهة نظر الكثيرين الممثل الحقيقي لعلم الاجتماع الألماني المعاصر فهو أحد الكبار المؤسسين (الحقيقة ومعه ماكس شيلر Scheler أيضا) لنظرية المعرفة ونظرا لمساهماته المتعددة في علم الاجتماع بعامة ومعالجته قضية موضوعية المعرفة بخاصة بالنظر إلى العوامل والشروط الاجتماعية وما لها من أثر في نشأة المعارف واكتسابها وانتشارها ومؤكداً بذلك على سوسيولوجية المعرفة وذلك عندما أصبتر أن المهمة الرئيسية لعلم اجتماع المعرفة إنما تتمثل في دراسة العلاقة التي تربط المعرفة بالشروط الاجتماعية وكذلك تحليل صلة الفكر بالوجود الاجتماعي والمواقف التاريخية مما يعني أن ثمة ارتباطا وائتلافا بين الفكر والوجود الاجتماعي يعكس الكثير من الارتباطات المتشعبة التي تربط المعرفة بالثقافة والتاريخ.

ولقد ولد مانهايم في بودابست (١٨٩٣) التي كانت مركزا من مراكز الانتشار الثقافي للفكر الألماني وعاش في فترة عصيبة مشحونة بجو الأزمات والصراعات السياسية أثناء الحرب العالمية الأولى التي مثلت فترة من أخرج فترات التاريخ الأوربي التي كان لها أعمق الأثر في تشكيل فكره وأيضا في صياغة الموضوعات الأساسية ليس في علم اجتماع المعرفة فحسب ولكن في كل ضروب المعرفة وبخاصة بعد أن ترسخت في عقله ووجدانه كافة الأزمات التي عكست أسوأ مظاهر التحلل الاجتماعي ولكن صاحببتها في الوقت نفسه درجة عالية من الإدراك والنقد والوعي بالذات.

إزاء هذا الواقع المليئ بالتناقض كان من الطبيعي أن يتولد لديه الإحساس بالحاجة إلى قيم جديدة وثقافة جديدة وفكر جديد وكان طبيعيا أيضا أن يتأثر بمختلف التيارات والفلسفات التي كانت تصطرع وقتذاك على الساحة لتضيف إلى تكوينه العقلي والنفسي ما جعله أقدر على البحث عن ذاته وعلى اكتشاف طريقه. فقد تعلم في جامعات بودابست وبرلين وباريس وفرايبورج كما تعرض لكثير من التأثيرات التي انطبعت بصماتها في تفكيره وفي مقدمتها تأثير الماركسية ذاتها

وتأثير جورج لوكاتش Lukacs وبيلازىلاى Béla Zalay وكذلك تأثير جورج زيميل Simmel وبصفة خاصة تأثير ادموند هوسرل Husserl وهنريش ريكتر Rickert وماكس فيبر Weber وماكس شيلر وديلتى Dilthey وبفعل هذه المؤثرات فقد مارست النزعة التاريخية الألمانية والماركسية والفينومينولوجية بالإضافة إلى البراجماتية الانجلوساكسونية تأثيرا متزايدا ظهر بأشكال متعددة فى أعماله.

هناك قول مشهور قيل فى وصف كارل مانهايم مؤداه أن تاريخ حياته كله يعكس هجرة فيزيقية وعقلية دائمة. وللحق فإنه قول ليس فيه الكثير من التجاوز فقد تبوأ عدة مناصب أكاديمية فى هيدلبرج وفرانكفورت ومدرسة لندن للعلوم الاقتصادية وفى جامعة لندن كذلك . فإذا ما تم استعراض شريط حياته الحافل أمكن التمييز فيه بين ثلاث مراحل أساسية أولاها ما يعرف بالمرحلة المجرية التى استمرت إلى عام ١٩٢٠ والمرحلة الثانية هى المرحلة الألمانية واستغرقت فترة قصيرة نسبيا من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢ ثم المرحلة الثالثة التى يطلق عليها المرحلة البريطانية من ١٩٢٣ إلى ١٩٤٧ عام وفاته. وغنى عن القول أن كل مرحلة من هذه المراحل كانت لها اهتماماتها وخصائصها التى انعكست فى كتاباته.

المرحلة الأولى (المجرية) كانت ذات طابع أدبى وفلسفى إلى حد بعيد وقد ظهرت له خلالها مقالة بعنوان «الروح والثقافة» Soul and Culture (١٩١٨) اتضح فيها مدى تأثره بأفكار جورج زيميل الفلسفية وتعتبر بوجه عام خطوة أولى فى محاولته تجاوز النظرة الألمانية المثالية فى التاريخ والمجتمع. كما ظهرت له أيضا فى هذه المرحلة بعض الكتابات التى نشرت فيما بعد ومنها «الحرية والقوة والتخطيط الديمقراطى» Freedom, Power and Democratic Planning.

ولكن الرحلة الثانية شهدت تحولا ملحوظا من الفلسفة إلى علم الاجتماع والشغل بالبحث عن الأصول الاجتماعية الممكنة للثقافة والمعرفة فتناولت كتاباته قضايا التحليل البنائى للمعرفة والنزعة التاريخية ومختلف التفاسير الاجتماعية والأيدولوجية للظاهرة الثقافية كما تناولت أيضا العديد من مشاكل التنافس والصراع الثقافى علاوة على مؤلفه الهام بعنوان «الأيدولوجيا واليوتوبيا» Ideology and Utopia (١٩٢٩) وغيره من الكتابات التى كانت بمثابة تمهيد أو مدخل لفهم والتحليل الاجتماعيين لبناء المعرفة وهى القضية الأساسية التى شغلتها وشكلت

عصب عطاءه العلمى خاصة وأنه حاول فى «الأيدولوجيا واليهوتوبيا» توضيح كيف أن كل البناءات العقلية باستثناء المعرفة الخاصة بالعلوم الطبيعية غير مترابطة فى السياق ولذا فهى تختلف فى خلفياتها التاريخية والاجتماعية. ومن هنا كان تمييزه بين نوعين أو تصورين للأيدولوجيا الأول هو المفهوم أو التصور النوعى حيث نجد أن جماع البناء العقلى أو الذهنى لموضوع ما لم يتحدد بعد بشكل واضح بوضعيته التاريخية والاجتماعية على حين أن التصور الثانى هو الشامل أو الكلى وفيه يرتبط الموضوع بأكمله بالموقف التاريخى والاجتماعى أو يكون مستمداً منه على أقل تقدير. وخلص من كل هذا إلى أن علم اجتماع المعرفة إنما يعبر إذن عن الأيدولوجية الكلية ومعبراً على وجه الخصوص بالكيفية التى تقدم بها الأشياء ذاتها ونفسها للموضوع وفقاً للاختلافات فى وضعياتها الاجتماعية.

أما المرحلة الثالثة من حياته فقد تلونت بشكل واضح بالتيارات والمواقف البراجماتية والعملية حيث ظهر له كتابان على الأقل حول التحليل الواعى لبناء المجتمع الحديث باعتباره بؤرة اهتمام علم الاجتماع التطبيقى على وجه الخصوص وقد صدر أول هذه الكتب تحت عنوان Man and Society in an Age of Re- construction (١٩٣٥) والثانى بعنوان Diagnosis of Our Time (١٩٤٣) بالإضافة إلى العديد من المؤلفات التى نشرت بعد وفاته وبعدها تمت ترجمتها إلى الانجليزية.

★ ★ ★

هيربرت ماركوزة فيلسوف ألماني نظر إليه الكثيرون على أنه ممثل الأيديولوجيا الألمانية والمنظر الأول لجيل الثائرين. ولد في برلين عام ١٨٩٨ لأسرة يهودية غنية ونال تعليمه في جامعات برلين وفرايبورج Fraiberg حيث تأثر في مرحلة تكوينه الأولى بفكر هيغل الذي امتزج في الوقت نفسه بفكر كارل ماركس.

في عام ١٩٣٤ بعد تأسيس الحزب الاشتراكي الوطني هاجر من ألمانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي منحتها الجنسية الأمريكية فأصبح مواطناً أمريكياً في عام ١٩٤٠. وفي هذه الأثناء التقى لأول مرة بماكس هوركيمر Horkeimer وأدورنو Adorno والتحق معهما بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي الذي أعادوا تأسيسه في كاليفورنيا. ثم بعد ذلك التحق بهارفارد وبرانديز وكولومبيا ولكن سرعان ما انقلبوا عليه بحجة إفساد عقول الشباب تماماً كما فعلت أثينا مع سقراط Socrate من قبل.

وقد تساعد النظرة الفاحصة لما يعتبر أهم أعماله على فهم تفكيره كواحد من أعلام النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت. كتابه الأول كان بعنوان «العقل والثورة» Reason and Revolution (١٩٤١) كان انعكاساً في الواقع لتأثره بفكر وفلسفة هيغل والكتاب نفسه يحمل عنواناً فرعياً يشي بذلك وهذا العنوان الفرعي هو «هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية» Hegel and the Rise of Social Theory ولذا كان على درجة عالية من التجريد وهو يناقش بعض المقولات الهامة والأساسية عند هيجل وفي مقدمتها مقولة التناقض الذي اعتبره هيغل دليلاً على حركة الفكر وقدرته الإبداعية مما يعني تأكيد الدائم على (الوجود) دون أن يحمل معنى العدم على ما يظهر في حركة الجدال الهيجلي الذي ينشغل بوجود ميتافيزيقي بحت (أو تجريد خالص) على العكس من الجدلية المادية. ومنه مقولة الحرية ومقولة الضرورة ومقولة الصراع ومقولة الحقيقة ذاتها وفي جوهرها مقولة «العقل» الذي مجده هيغل على حين أكد كارل ماركس مقولة «الثورة» الأمر الذي أكد عليه ماركوزة بدوره.

في كتابه الثاني المعنون «الأيروس والحضارة» Eros and Civilization (١٩٥٥) تناول الكثير من المفهومات التي أثارها فرويد ومن بعده كتاب «الماركسية السوفياتية» Soviet Marxism (١٩٥٨) ثم بعد ذلك كتابه الهام الرابع بعنوان «الإنسان الواحدى البعد» One-Dimensional Man (١٩٦٤) الذى انتهى فيه إلى تقرير أن المجتمع الحديث المعروف بالنزعة الليبرالية إنما هو فى الحقيقة مجتمع محبط وعدوانى ومليئ بشتى أساليب الكبت والضغط التى تمارس على الأفراد مما يتوجب معه وجود صفة من المثقفين الذين يسعون ويعملون على إزالة هذه القوى الغاشمة والتى لا سبيل أمامها لتحقيق هذا إلا عن طريق الثورة Revolution. ففى اعتقاده أن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يطبع كل جوانب الحياة والوجود الإنسانى وإن كان يخلق معه من القوى والعوامل الكامنة فى النظام ويبدو أنها تقاومه إلا أن المشكلة هى فى كيفية التحول من الإمكان إلى الفعل وفى اعتقاده أن الفلسفة عليها مهمة أن تجعل الناس مدركين لحقيقة البيئة والواقع الاجتماعى الذى يسعون إلى تغييره. وإن كانت بعض كتاباته الأخرى قد حاول فيها أن يحدد القوى والشروط التى يلزم توافرها كيما توجد الصفة الثورية التى يقع عليها عبء التغيير المنشود.

★ ★ ★

يعتبر عالم الاجتماع الفرنسي مارسيل موس واحدا من أساطين علم الاجتماع وبخاصة علم الاجتماع الفرنسي الكلاسيكي الذي ورث تقاليده عن أميل دور كايم والتي ظل مرتبطا بها وأمينها عليها حتى وفاته عام ١٩٥٠ بعدما خلف العديد من الدراسات والبحوث التي سجلتها المجلة السنوية لعلم الاجتماع L'Année Sociologique بعدما استوعب المنهج الدوركايمي فأضاف إلى علم الاجتماع الفرنسي الكثير وبخاصة في ميادين اللغة والدين والثقافة والسحر والفولكلور فكان بذلك مؤرخا للأديان وعالما في اللغات (السنسكريتية بالذات) إضافة إلى علم الاجتماع الديني الذي اهتم فيه ببحث الظاهرة الدينية والنظم الدينية في ضوء تاريخها ومن خلال تتبع أصولها وماضيها والمراحل التي تطورت فيها إلى العصر الحديث.

ولقد ولد مارسيل موس في ابينال Épinal بفرنسا عام ١٨٧٢ في أسرة مشغولة بالفكر وبالثقافة ولا عجب في ذلك فقد كان أميل دور كايم أحد أعضائها (خاله) فنشأ في كنفه وتحت رعايته فتشرب فكره ومنهجه اللذين سار على هديهما طوال حياته العلمية. ومع ذلك فقد كانت له شخصيته التي تختلف في بعض جوانبها عن شخصية أستاذه. فإذا كان دور كايم فيلسوفا قبل أن يكون عالما فإن مارسيل موس لم يكن فيلسوفا وإنما كان عالما ولذا فقد اصطبغ منهجه وفكره بصيغة خاصة نزولا على منهجه الموضوعي الدقيق الذي يركز فيه على دراسة الظواهر المشخصة كيما يبتعد عن تجريدات الفلاسفة وتفسيراتهم بعدما كانت غارقة في الدراسات الدوركايمية والأبحاث الوصفية والفلسفية التي خلفتها كتابات أوجيست كومت Comte. فعلم الاجتماع عنده له مفهوم خاص هو دراسة الظواهر الاجتماعية الكلية Phénomène Sociaux Totaux أي في كليتها ومجموعها المتكامل ويعالجها كما تتمثل في أشكالها ونماذجها وحركاتها وانتقالها. وهذه ناحية اقترب بها ولا شك من الامبريقية مفجرا بذلك ثورة علمية في ميدان علم الاجتماع الفرنسي.

ولا يتسع المجال هنا للإحاطة بكل الميادين التي كتب فيها مارسيل موس ولكن من المهم أن نشير هنا إلى أنه في محاولته دراسة النظم الاجتماعية ومهمتها كان

يهتم اهتماما أساسيا بدراسة البناء الاجتماعي الكلى الذى يوجد فيه النظام موضوع الدراسة الأمر الذى كان يرى أنه يستدعى أمرين الأول دراسة البناء الاجتماعي من الخارج معتبرا هذا ضرورة منهجية تحتمها الدراسة العقلية والثانى دراسته من الداخل وهذه ضرورة يلتزم بها الباحث بالحياة الاجتماعية ويجعل منهجه أقرب إلى مناهج الأنثروبولوجيين فى دراستهم للمجتمع.

وفى مقدمة اهتماماته دراسته ومعالجته للظاهرة الدينية. وإذا كان دور كايم قد سبق وصدر له كتابه «الأشكال الأولية للحياة الدينية» - Les Formes El-ementaires de la Vie Religieuse (١٩١٢) فقد صدر لمارسيل موس كتابا فى المجال نفسه أصدره بالاشتراك مع زميله أو بير Hubert تحت عنوان «مقتطفات من تاريخ الأديان» Melanges d'Histore des Religions (١٩٢٩) عالج فيه ظاهرة الدين واهتم بتفسيرها. والتفسير عنده كان يعنى إقامة نسق عقلى يربط الظواهر ويصل ما بين الوقائع والأحداث متبعا للظاهرة منذ بداياتها الأولى البسيطة منتها إلى أكثرها تطورا وأشدّها تعقيدا وتركيبا. والحقيقة أن اهتمامه بالظاهرة الدينية كان قد بدأ من قبل هذا الكتاب بوقت طويل. فقد صدر له وهو لم يزل فى السابعة والعشرين من عمره كتاب تحت عنوان «دراسات فى طبيعة القرى ووظيفته» Essai Sur le Nature et le Fonction des Sacrifice (١٨٩٩). وعموما فيرتبط بهذا الميدان دراساته للسحر الذى نظر إليه على أنه ظاهرة اجتماعية فناقش تصوراته ومنطقه وأحكامه وقوانينه.

ولكن دراسته للهدية تعتبر من أهم انجازته العلمية التى مارست تأثيرها على الكثير من الطلاب والباحثين حتى إن هذه الدراسة عن الهدية وعن نظم التهادى والتبادل التى ظهرت فى كتاب بعنوان «مقال عن الهدية» Essai Sur le Don: Forme Archiac de l'exchanges (١٩٢٥) قد استعان بها مالفينوفسكى كأساس لدراسته لنظام الكولا الذى يعنى نوعا من الاتفاق أو التعاقد بين سكان التروبرياند الذين درسهم وكذلك نظام البوتلاش الذى يعتبر أقدم النظم الاقتصادية فى المقايضة والتبادل والتجارة.

وعلى العموم فقد صدر له فى آخر أيامه كتابه الذى يحوى نظريته ومنهجه الاجتماعيين وكان بالاشتراك أيضا مع أوبير تحت عنوان «علم الاجتماع

والانثربولوجيا» Sociologie et Anthropologie (١٩٥٠) واحتوى على منهجه المتكامل الذي استند فيه إلى معنى الظاهرة الذي يصعب التوصل إليه إلا في ضوء الكشف عن العلاقات الهائلة المتشابكة التي تدخل في البناء الاجتماعي الذي تتميز انساقه ونظمه بتساندها البنائي والوظيفي في آن واحد معا.

★ ★ ★

واحدة من أبرز الرائدات الأوائل اللاتي قمن بالعديد من الدراسات الحقلية الانثربولوجية الأمر الذي ساعدها على انجازه تكوينها العلمي من ناحية وشخصيتها القوية والجذابة من ناحية ثانية والمناخ ذاته الذي تهيأ لها أثناء دراستها في جامعة كولومبيا.

ولدت مارجريت ميد في فيلادلفيا عام ١٩٠١ وتتلذت من عام ١٩٢٣ على يد فراتز بواص وحصلت على درجة الدكتوراه في ١٩٢٩. كما تتلمذت أيضا على يد عالمة الأنثربولوجيا الأمريكية روث بنديكت التي كان شغفها بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية وراء تغذية الاتجاه الذي سارت فيه مارجريت ميد فكانت أولى دراساتها الميدانية في ساموا عن «البلوغ في ساموا» *Coming of Age in Samoa* وهي الدراسة التي ظهرت نتائجها في ١٩٢٩ ثم كانت دراستها الثانية في غينيا الجديدة عن التربية والتنشئة والنمو *Growing up in New Guinea* (١٩٣١) حيث أبرزت الأنماط الثقافية التي تتبعها هذه الثقافات في تنشئة صغارها وهي أنماط ذهبت ميد إلى أنها تختلف باختلاف الثقافات ذاتها وليس بسبب عوامل الجنس أو العوامل البيولوجية. وكانت إحدى النتائج الهامة التي كشفت عنها هذه الدراسات أن كثيرا من المشكلات التي تتعرض لها حياة الفتاة المراهقة (والمراهقة ظاهرة عامة في كل المجتمعات الإنسانية) والتي توجد في المجتمع الأمريكي لا وجود لها في ساموا مما يعنى أنها تظهر فقط مع وجود أنواع أو أنماط معينة من البيئة والتنشئة الاجتماعية.

وبتعبير آخر أكدت مارجريت ميد على الدور الحيوى للبيئة وللثقافة في هذه العمليات الاجتماعية وهو ما عززته على أى الأحوال بدراستها التي أجرتها في ثلاثة مجتمعات مختلفة ونشرت تحت عنوان «الجنس والمزاج في ثلاثة مجتمعات بدائية» *Sex and Temperament in Three Primitive Societies* (١٩٣٥) وأبرزت فيها الاختلافات الثقافية التي ترتبط بالجنس على أنها لا صلة لها بمقولات الذكورة والأنوثة وإنما الاختلافات الثقافية هي التي يرجع إليها الاختلاف في التنشئة بل وما قد يتصف به الأفراد من الجنسين من صفات وخصائص وهو ما أكدته منهجيتها القائمة على الملاحظة بالدرجة الأولى وليس على الاحصاءات والتقارير والروايات.

بيد أن هذا الاهتمام بالعمل الميداني لا يعني أن مارجريت ميد لم يكن لها
اسهامها النظري فمن بين أعمالها التي تمتعت - وحتى اليوم - بمزيد من التقدير
وبخاصة أثناء عملها بمتحف التاريخ الطبيعي «الذكر والأنثى» Male and Female
(1949) و«الأنثروبولوجيا: علم إنساني» Anthropology: A Human Science
(1964) و«خطابات من الميدان» Letters From The Field (1978) وقد يكفى
تقديرها لها أنها اختيرت وهي في الثانية والسبعين من عمرها رئيسة لرابطة العلوم
الأمريكية. كما حصلت في العام ذاته الذي توفيت فيه (1978) على ميدالية الحرية
التي تعتبر أعلى وأرفع تقدير أمريكي يقدم للأفراد.

★ ★ ★

عالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون أحد أقطاب الوظيفة في العصر الحديث اهتم اهتماما كبيرا بإبراز دور التجربة العقلية في تحقيق التوازن والتكيف داخل النسق الاجتماعي وتشعبت اهتماماته الأصيلة فشملت سوسولوجيا العلم والمهن والحرف والنظرية الاجتماعية والاتصال الجماهيري كما سيطرت علي ذهنه منذ وقت مبكر المشكلة الاجتماعية فسعى جاهدا لتشييد نظرية خاصة في السلوك الانحرافي أقامها أساسا على تحليله النظري لصور عدم التوافق والتكيف الاجتماعيين.

ولد ميرتون في فيلادلفيا عام ١٩١٠ وبعد أن حصل على درجة الدكتوراه في عام ١٩٣٦ من جامعة هارفارد التحق بها حيث قضى حوالى ثلاثة أعوام عمل بعدها في جامعة تولان Tulane في نيو أورليانز (٣٩ - ١٩٤١) ثم التحق بجامعة كولومبيا حيث أصبح أستاذا للاجتماع في ١٩٤٧. هذا بالإضافة إلى عمله كمدير مساعد لمكتب البحوث التطبيقية (١٩٤٢ - ١٩٧١) حيث ارتبط بعلاقة وثيقة مع بول لازر سفيلد فائز كل منهما في الآخر حيث أخذ منه وضوح منطقته ومنهجيته وأساليبه الكمية والكيفية وأثار ميرتون في زميله اهتمامه بالدراسات التاريخية وبقضايا علم الاجتماع.

في كتابه الشهير «النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعي» Social Theory and Social Structure (١٩٤٩) حدد ميرتون بوضوح طبيعة العلاقات المتبادلة بين النظرية الاجتماعية من ناحية والباحث الامبريقي من ناحية ثانية مؤكدا بذلك على ملامح مدخله البنائي الوظيفي في دراسته المجتمع وتناوله للمشكلات الاجتماعية. وتتمحور الرؤية الأساسية للبنائية الوظيفية للمجتمع والعلاقات القائمة والمتبادلة بين النظم القائمة فيه أكثر من التأكيد على علاقة الأفراد أو حتى الجماعات. وساعده هذا التصور في أن يقدم بعض المفاهيم الأساسية التي أصبحت ضرورة للتحليل الوظيفي مثل مفهوم الوظيفة الكامنة ومفهوم الوظيفة الظاهرة. على الرغم من اعتقاده أن مفهوم الوظيفة نفسه مفهوم غامض وغير متفق عليه إلى حد بعيد. ولهذا فقد حاول توضيح المفهوم من وجهة نظره فأورد المعانى التي يستخدم فيها وذلك في ضوء المسلمات الأساسية التي يقوم عليها المنظور الوظيفي. وبتعبير آخر يمكن القول بأن ميرتون قد قدم في هذا الكتاب نموذجا أو إطارا تصوريا منظما

للوظيفية من خلال عرضه الدقيق لجوهر التحليل الوظيفي واجراءاته وأساليب البحث فيه بالإضافة إلى التفرقة التي أقامها بين مفهومي الوظيفة الكامنة والوظيفة الظاهرة.

ولكن ميرتون يرجع إليه الفضل في ادخاله مفهوم البدائل الوظيفية -Func-tional Alternatives الذي يلعب دوراً محورياً في التحليل وخاصة عندما نتخلى عن التسليم بفكرة الوظيفة التي ينطوى عليها بناء اجتماعي معين بمعنى أنه يركز على مدى التنوع الممكن في الوسائل كيما نستطيع أن نحقق مطلباً وظيفياً. وعموماً فإن هذه المفاهيم ترتبط بمفهوم آخر هو مفهوم المعوقات الوظيفية Disfunction الذي يمثل بدوره أداة تحليلية هامة لفهم ودراسة الديناميات والتغير.

ولقد تأدت به هذه الاهتمامات إلى التركيز على أمرين بذاتهما هما أولاً اهتمامه بسوسيولوجيا العلم حيث درس العلاقة بين التفكير البيوريتاني Puritan وظهور العلم وما صاحبه من تطور تكنولوجي كان له أبعاد الأثر في إحداث التغيير الاجتماعي وأيضاً ما صاحبه ونجم عنه من مشكلات. ومع أنه أصدر في وقت مبكر جداً كتابه «العلم والتكنولوجيا والمجتمع في إنجلترا القرن السابع عشر» Science, Technology and Society in Seventeenth Century England إلا أنه عاد للاهتمام بالقضية ذاتها بعد ذلك بسنوات فظهر كتابه «علم اجتماع العلم» The Sociology of Science (1973) وكان من أهم ما أوضحت هذه الكتابات موقفه من الطبيعة الأمبريقية لعلم الاجتماع حيث عاب عليه اهتمامه بالمسائل والمشاكل الصغيرة التافهة مهاجماً بذلك الاتجاه الأمبريقى الذي يسم العلم على حين ظلت المشكلات الكبرى الفقر والطبقة والحروب بعيدة عن التداول.

أما الأمر الثاني فيتمثل في دراسته للانحراف التي انطلق منها بدءاً من تساؤل أساسى عن أسباب التباين في معدلات وقوع الانماط والأشكال المختلفة من الانحراف وارتباط هذه الأنماط والمعدلات بالبناءات الاجتماعية المختلفة وهذه قضية من الواضح أنها ذات طابع دور كايى خاصة وأن مفهوم الأنومى Anomie الذي يرجع إلى دوركايم يلعب دوراً محورياً في نظرية ميرتون عندما يقرر أن السلوك المنحرف كالجريمة والجناح والانتحار والطلاق والأمراض النفسية وما إلى ذلك إنما تنشأ كلها عن تلك الظروف ذاتها التي تلابس البناء الاجتماعي أى أنها

نتاج للأنومى أى الصدام والصراع بين الوسائل والطرائق التى تقرها القواعد والنظم الاجتماعية وبين الأهداف المفضلة ثقافيا وبخاصة عندما تتسع الهوة بينهما أى بين ما هو ممكن فى الواقع وما تضعه الثقافة من أهداف يحاول البعض الوصول إليها على الرغم من أنه لا توجد واقعا الفرصة المتكافئة أمام الأفراد أو الجماعات نتيجة للتفاوت فى المراكز والانتماءات الطبقية.

وعموما فإن ما لاشك فيه هو أن ميرتون كان مبدعا وخلاقا وهو يتناول جانبى النظر والتطبيق على ما يظهر من كتاباته العديدة التى من بين أهمها «الاغراء الجماهيرى» Mass Persuasion (١٩٤٦) و «فى علم الاجتماع النظرى» On Theoretical Sociology (١٩٦٧) و«النظرية الاجتماعية والتحليل الوظيفى» Social Theory and Functional Analysis (١٩٦٩) و«البحث الاجتماعى الكيفى والكمى» Qualitative and Quantative Social Research (١٩٧٩) وهو كتاب اشتمل على عدة مقالات كتبها كتعية وتقدير لزميله بول لازسفيد فقد كانا فريق عمل عبقرى أثر فى كثير من الدارسين على مدى علاقة استمرت من ١٩٤١ - ١٩٧٦ .

★ ★ ★

لعل واحد من الأنثروبولوجيين قد نجح في نشر وتدعيم مبادئ المدرسة الثقافية التاريخية مثلما نجحت منهجية عالم الأنثروبولوجيا السويسرى ألفريد ميترو بإسهاماته الرائدة فى فهم التاريخ الأثولوجى للعديد من ثقافات العالم الجديد والعالم القديم وبخاصة ثقافات جنوب أمريكا والثقافات الأفريقية ومدى امتزاجها وتأثيرها فى ثقافة هايتى Haiti .

وقد ولد ميترو فى لوزان بسويسرا عام ١٩٠٢ وعمل مع عدد من أبرز شباب الأنثروبولوجيين الأوروبيين فاكتسب من الخبرات ما هيا لأن تتضح مفاهيمه الخاصة وتقاليده البحثية التى تشكل العمود الفقري لدخله فى الأنثروبولوجيا التاريخية والذى بدأ فى ممارسته وتطبيقه وبخاصة عندما أصبح مديرا للمعهد الأثولوجى التابع لجامعة تاكيومان Tucumàn بالأرجنتين إذ أمكنه خلال الفترة من عام ١٩٢٨ إلى ١٩٢٤ من انجاز عملين كلاسيكيين يعتبران من أهم مؤلفاته. الأول (١٩٢٨) عن التاريخ الأثولوجى لتأثير هنود توبينامبا Tupinamba البرازيليين الذين لعبوا دورا كبيرا فى مساعدة البرتغاليين على التكيف مع العالم الجديد.

بعد ذلك رافق إحدى البعثات العلمية إلى جزيرة إيستر Easter Island فيما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ ومن ثم انضم إلى متحف بيشوب Bishop Museum فى هونولولو Honolulu حيث انشغل فى دراسة حقلية ضخمة فى كل من الأرجنتين وبوليفيا وقد ظهرت نتائج هذه الدراسة فى كتابين رئيسيين الأول بعنوان «أثولوجيا جزيرة إيستر» Ethnology of Easter Island (١٩٤٠) والثانى كان بعنوان «جزيرة الباكه» L'Ile de Pâques (١٩٣٥).

ولقد أثار نشره للنتائج التى توصلت إليها دراسته لجزيرة إيستر ضجة هائلة بما أثارته من جدل طويل إذ أعلن عن أن سكانها من البوليفيزيين (بولينيزيا) سواء من حيث التكوين الفيزيقي أو الثقافى هذا بالإضافة إلى اكتشافه أن أنماط وأساليب النحت والتشكيل التى تشتهر بها الجزيرة هى اختراع وخلق وطنى أكثر منه آسيويا أو مما ترجع أصوله إلى الهنود الأمريكيين.

ولكن فى سنوات حياته اللاحقة انطبعت حياته العلمية والعملية حتى وفاته (١٩٦٣) بطابع مميز أضاف كثيرا إلى عطائه العلمى. ففى عام ١٩٤١ التحق بمكتب الأثنولوجيا الأمريكية التابع لمعهد سميث فى واشنطن وانشغل من هذا التاريخ وحتى عام ١٩٤٥ فى عمل نموذجى عن إعادة بناء وهيكله كتاب المكتب السنوى عن الهنود الأمريكيين وما جاء عام ١٩٥٩ حتى كان قد أنجز سبعة مجلدات ضخمة إلى جانب أعبائه وهو يحاضر منتقلا ما بين مختلف الجامعات فى الولايات المتحدة والمكسيك وغيرها من الأماكن.

أما خلال الفترة من عام ٤٦ إلى ١٩٦٢ أى قبيل وفاته بعام واحد فقد شغل عدة مناصب فى الأمم المتحدة وبخاصة فى (اليونيسكو) حيث قام ببعض الدراسات فى الأمازون (١٩٤٧ - ١٩٤٨) وفى هايتى (١٩٤٩ - ١٩٥٠) كما تولى خلال الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٨ مهمة الإشراف على سلسلة من المؤلفات والأبحاث والسير والنشرات التى تتناول قضايا الجنس والسلالات ومشكلات الأقليات والعلاقات الدولية والعنصرية بوجه عام. كما صدرت له بعض المؤلفات الهامة التى لقيت إقبالا هائلا ربما لغرابة موضوعاتها ولسهولة أسلوبها وعرضها وعرض مضامينها بالرغم من طابعها العلمى.

فى عام ١٩٥٩ صدر له كتاب تحت عنوان «الفودو فى هايتى» Voodoo in Haiti حيث تناول هذه الممارسة (السحرية) تفصيلا ولكن من خلال نظرتة إليها على أنها نسق بنائى ثقافى ودينى معقد. ومن ثم فقد سعى إلى البحث فى أصولها الأفريقية بالاضافة إلى تناوله لعلاقتها بالكاثوليكية فى الجزيرة.

★ ★ ★

شارلس رايت ميلز عالم الاجتماع الأمريكى ارتبطت جهوده بدراسة الماركسية والفيبرية وبمختلف القضايا وثيقة الصلة بالطبقة المثقفة وقضايا المثقفين وبدورهم الواجب القيام به فى الحياة الثقافية الحديثة.

ولقد ولد ميلز فى مدينة واكو Waco فى تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية فى شهر أغسطس عام ١٩١٦ وكأستاذ لعلم الاجتماع فى جامعة كولومبيا فقد برز اهتمامه مع لضيف من العلماء اللامعين من جيله منهم هانز جيرث Hans Gerth بفحص الماركسية والتقليد الفيبرى ومواقفهم من المشكلة الاقتصادية وبخاصة الحتمية الاقتصادية وأيضا مشكلات الطبقة التى أضاف إليها أحد المفاهيم أو المقولات الهامة فى فهم الطبقة وتحليل علاقاتها الداخلية والخارجية على السواء وهى مقولة المركز أو المكانة Status وهى اهتمامات تدخل ضمن النطاق الأوسع الذى يعبر عنه موضوع التغير الاجتماعى وما يثيره من مشكلات وبخاصة تلك التى تتعلق بتكامل المجتمع وعلى أى نحو يكون أو يتم هذا التكامل. والواقع أن الأساس لكل هذه القضايا وتحليله النظرى لها قد ضمنه كتابه المعنون «الشخصية والبناء الاجتماعى» الذى ألفه بالاشتراك مع جيرث Character and Social Structure (١٩٥٣) الذى يعتبره الكثيرون من بين أسس علم الاجتماع النظرى المعاصر الهامة. حيث أبرز مفهوم الدور كمفهوم محورى يوحد بين النظرية الاجتماعية والنظرية السيكولوجية باعتبار أن البناء يتكون من العديد من الأدوار التى ترتبط بالأنساق وبالنظم المختلفة ومن ثم يسهل تحليل البناء فى ضوء تحليلنا لهذه الأدوار مما يترتب عليه أنه كلما كانت الأدوار متسقة كان تكامل البناء أعمق وأوضح.

وبالرغم من أن استخدام المنهج التاريخى عادة ما تكتفه بعض المخاطر التى تتمثل فى التركيز على ما هو ملموس ويتصف بالتفرد فقد توسع ميلز فى استخدامه لهذا المنهج لدرجة أن معظم مؤلفاته يمكن وصفها بأنها عبارة عن تفسيرات تاريخية للعلوم الاجتماعية فى النسق العالمى المعاصر. ولكن الذى لاشك فيه هو أن ميلز كان على وعى بهذه المخاطر وربما كان هذا دافعه الأساسى وراء مؤلفه الممتاز الذى نشره بعنوان «الخيال الاجتماعى» The Sociological Imagination (١٩٥٩) حيث

ضمن هذا الكتاب تلخيصا عميقا للنزعة الإنسانية التي اعتقد أنها كامنة وراء علم الاجتماع وبذلك فهو يمثل رؤية اجتماعية إلى العالم حيث يدعو إلى علم اجتماعي ذي نزعة إنسانية مما يعنى انتقادا للنزعة الامبريقية والنظريات الكبرى معا.

ولقد حدد هذا الموقف النظرى والمنهجى مساره الفكرى خلال الخمسينيات من القرن الماضى وحتى وفاته فى نيويورك عام ١٩٦٢ حيث سعى خلال هذه السنوات إلى توضيح قناعة أساسية ترسخت فى أعماقه مؤداها أنه لا يتعين على عالم الاجتماع أن يقنع بدوره كملاحظ أو مراقب تشغله فحسب ما يطلق عليه «الامبريقية المجردة» وإنما عليه الاهتمام بالدرجة الأولى بمختلف النشاطات التي تؤكد مسئوليته الاجتماعية مؤكداً بذلك على حقيقة أن المثقفين الأمريكين قد فشلوا بوجه عام فى ريادةهم الأخلاقية لدرجة أن صاروا هامشيين بعدما رضوا بتسليم كل شيء لأيدى الآخرين على نحو ما يكشف عنه كتابه «الياقات البيضاء» White Collar (١٩٥١) الذى تضمن تحليلا للطبقة الوسطى الأمريكية وأيضا كتابه «صفوة القوة» The Power Elite (١٩٥٦) الذى ذهب فيه إلى أن أمريكا تحكمها مجموعة من الصفوات ذات المصالح الثابتة المترابطة. ومع أنه قدم فى عام ١٩٥٨ كتابه عن أسباب الحرب العالمية الثالثة The Causes of World War. III إلا أن آخر كتبه اتجه به اتجاها آخر وإن لم يكن بعيدا عن جوهر موقفه إذ عكس مؤلفه «الماركسى» The Marxist (١٩٦٢) اهتمامه بالثورة الكويبية من وجهة النظر الكاستورية. موضحا عدم ارتياحه للاستخدام الأيديولوجى الذى يتمسك به الدارسون فى ضوء انتقادات فيبر معبرا عن وجهة نظره الأخلاقية التي تتمثل فى توظيف المعرفة لخلق المجتمع الطيب السليم ومؤكدًا بذلك على المسئولية التي يتعين على العلماء الوفاء بها فى وجه السلطة والإغرا سواء بسواء.

★ ★ ★

عالم الاجتماع والاقتصاد الأمريكى ويلبرت مور من أبرز العلماء وكبار المتخصصين فى دراسة التغير الاجتماعى والتطور الاجتماعى من منظور أميل إلى أفكار التطورية المعتدلة التى حاولت تصنيف نظريات التغير تصنيفا بنائيا لا يهتم فحسب بالتعرف على مصادر التغير واتجاهاته وإنما بالاهتمام أيضا بديناميات التغير وما تحدثه من تأثيرات فى المدى القصير أو الطويل فى الوحدات البنائية المختلفة التى قد تكون نظاما اجتماعيا أو مجتمعا محليا أو المجتمع القومى بأكمله وفتح بذلك المجال أمام علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد والأنثروبولوجيا المهتمين بدراسة التغير الاجتماعى وما يصاحبه أو ينتج عنه من مشكلات والذين يسعون إلى وضع نظريات عامة تفسر التغير وأسبابه واتجاهاته وشدته وتأثيراته وبخاصة فى ضوء رؤاه وفرضياته المتعلقة بإمكانات التنبؤ التاريخى بمسارات التطور والتغير الاجتماعى ومعتمدا بشكل قوى على التحليل الأمبريقى المنظم.

ومور له العديد من الاسهامات فى دراسة التغير الاجتماعى نشرها فى المجلة الاجتماعية الأمريكية بالاشتراك مع بارسونز الذى ركز بصفة خاصة على ما أسماه «العموميات التطورية فى المجتمع» بينما ركز ويلبرت مور أساسا على ما أطلق عليه «التنبؤ بالتغيرات فى التغير الاجتماعى» وفروضه التى أقام عليها تنبؤه التاريخى ومقوماته الأساسية لهذا التنبؤ.

وفى عام ١٩٦٣ ظهر كتابه الهام المعنون «التغير الاجتماعى» Social Change والذى يعتبر (بالرغم من صغره) من أعظم المحاولات التى هدفت إلى إقامة نظرية فى التغير لاحتوائه على مناقشة ولئن كانت قصيرة إلا أنها كانت واضحة وعميقة فى إبرازها لطبيعة واتجاه التغير وجذوره وتحولاته ودينامياته مستخدما بعض المفاهيم والتصورات التى تعتبر قريبة فى الشبه وحتى فى المعنى لتلك التى عادة ما يستخدمها بارسونز. فعند مور تلعب عملية الانتقال وعملية الاقتباس الثقافى دورا جوهريا فى إحداث التغير. ولكنه يرى أن هاتين العمليتين لا تحدثان بطريقة عشوائية أو عمياء أو آلية بين المجتمعات. ويدلل على ذلك أن المفاهيم والتصورات الثقافية لا تستقبلها الجماعات أو المجتمعات بطريقة أو استجابة واحدة فقد تلقى

قبولا من جماعة دون الأخرى كما قد تلقى مواقف يمتزج فيها الشك والرغبة معا ناهيك عما قد يطرأ على العناصر المقتبسة من تعديل أو تحويل أو حتى تبقى على حالها إذا ما كانت تتناسب وتتلاءم مع البيئة الجديدة وطبيعة نظامها القيمي على وجه الخصوص.

وانطلاقا من هذا التصور المحورى يتوصل إلى محددات التنبؤ التاريخى الذى حصر إمكانية حدوثه ارتباطا بالمدى القصير فقط مما يعنى صعوبة (أو حتى استحالة) التنبؤ باتجاهات التغير على المدى الطويل وهو ما يرتبط على أية حال بالقدرة على المثابرة وبالتجارب المستفادة ويمدى استمرار الاتجاهات المنتظمة والتخطيط الواعى للمستقبل.

وإن كان قد اعتبر الثورات الاجتماعية بالذات من بين العوامل الهامة المعجلة بأحداث التغير وربما تحديد شدته فى أغلب الأحيان إضافة إلى ما تحدثه الثورات من تغيرات تلحق بالنظم والبناء الاجتماعى بأكمله بما لهذا من تأثيرات ومضاعفات مباشرة وغير مباشرة على السواء.

ومهما يكن من أمر فقد اهتم فى معرض حديثه عن موضوع الانتشار والانتقال الثقافى بالحديث عما تتجه إليه كثير من المجتمعات إلى التصنيع والتحديث وبخاصة فى السنوات الأخيرة وبخاصة فى مجالات الابتكارات التكنولوجية وأساليب العمل والإنتاج والإدارة الحديثة وإن لم يفضل فى كل هذا عما قد يفد على هذه المجتمعات من قيم وأفكار قد تتعارض أو حتى تصطرع مع ما يوجد فى المجتمع من قيم وأفكار أصيلة الأمر الذى يحدث غير قليل من مظاهر التآرجح بين القديم والحديث إن لم يكن التوتر والصراع والصدام وما ينجم عنها من آثار سلبية من الصعب التنبؤ بمداها وخطورتها على ما أوضحه فى كتابيه اللذين نشرهما تباعا تحت عنوان «التصنيع والعمل» Industrialization and Labor والأخر بعنوان «العلاقات الصناعية والنظام الاجتماعى Industrial Relations and Social Order فى العام نفسه (١٩٥١).

★ ★ ★

عالم انثربولوجى أمريكى مارست كتاباته تأثيرا فائقا على الدراسات القرابية لاختصاصه البحث القرابى للطريقة العلمية الاحصائية المقارنة فبلور بذلك أوجه المشابهات والأختلافات فى أنظمة المجتمعات بالإضافة إلى دوره الكبير فى إبراز المراحل التطورية والجوانب الدينامية للبناء الاجتماعى بصورة عامة والتركيب أو النظام القرابى بصفة خاصة مما فتح الطريق واسعا أمام أجيال الباحثين لأن يتعمقوا ويطوروا البحث القرابى لا بالاعتماد على أسلوب الوظيفيين الشكليين ممن تأثروا برادكليف براون مثلا وساروا على منهجيته ولكن فى ضوء تحليل وتفسير ما يطرأ على المجتمعات والجماعات من متغيرات علاوة على أنه نجح فى وضع الخطط الدراسية التى تساعد على دراسة العلاقات بين القرابة وباقى المؤسسات الاجتماعية الموجودة فى قلب المجتمع المعين. ومستعينا فى كل هذا بالكم الهائل من المعلومات التى أمدته بها دراسته الرائدة المقارنة التى أجراها فى ٢٥٠ مجتمعا كعينة أثنوجرافية عالمية وغطت (الدراسة) كل منحى من مناحى الحياة الثقافية المعروفة.

وقد ولد ميردوك عام ١٨٩٧ فى ميريدن Meriden بالولايات المتحدة الأمريكية ودرس التاريخ فى جامعة ييل Yale ونال درجته العلمية الأولى عام ١٩١٩ ثم درجة الدكتوراه فى عام ١٩٢٥ بعدما تخصص فى الأنثولوجيا المقارنة. وبدأ حياته العملية بالتدريس فى الجامعة التى تخرج فيها وظل بها طوال الفترة من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٦٠ ثم أصبح أستاذا للأنثربولوجيا فى جامعة بتسبرج وقد أصبح حجة فى الأنثولوجيا المقارنة واثنوجرافية الشعوب الأفريقية والقبائل الأسترالية إلى جانب النظرية الاجتماعية. أما شهرته فترجع أساسا إلى أنه كان الباحث الرئيسى الذى خطط لواحد من أهم وأضخم المسوح الثقافية المقارنة الذى اضطلع به معهد العلاقات الإنسانية بجامعة ييل فى عام ١٩٢٧ وهو المسح الذى شمل عينة عالمية من مائتين وخمسين مجتمعا كما سبقت الإشارة.

وليس من شك فى أن موضوع القرابة كان المحور الأساسى لكل تفكيره وذلك على اعتبار أن نظام القرابة وما يتضمنه من مواقف وقضايا ومشكلات تتعلق بالزواج وبالعائلة يحتل مركزا رئيسيا فى الدراسات الأنثربولوجية (والاجتماعية

أيضا) التي تولى اهتماما خاصا لدراسة المجتمعات البدائية والتقليدية والمتأخرة عموما من ناحية، وعلى اعتبار أيضا أن القرابة وبخاصة في هذه المجتمعات تلعب دورا هاما في حياتها. فالنظام القرابي يمثل المحور الذي تنتظم حوله كل النشاطات والسلوكيات من ناحية ثانية الأمر الذي تتضاعف أهميته بحقيقة أنه لا توجد جماعة بشرية تخلو من نظام العائلة أيا ما كان شكلها وتركيبها.

وليس معنى هذا أن ميردوك هو أول من لفت الأنظار إلى هذا الموضوع فقد كان محل دراسات سابقة قام بها كثير من العلماء (خصوصا من التطوريين) في القرن التاسع عشر بالذات ولكن الحديد فيما يتعلق بالأستاذ ميردوك هو منهجه ودراساته المقارنة والإحصائية خاصة وهو يمزج بين اللغويات والاجتماع وعلم النفس السلوكي والتحليل النفسى في معالجته للمادة الأثنوجرافية التي بين يديه والتي أمدته بها دراساته الواسعة للحركات الثقافية ونظام العائلة والأسرة ونظم وأنماط الاتصال بين الشعوب الأفريقية وغيرها.

ونظرا للدور الهام الذي تلعبه علاقات وروابط القرابة (وهي متداخلة ومتشابكة إلى حد بعيد) فقد اهتم ميردوك كثيرا بتوضيح أهم المفاهيم والتطورات التي يجرى استخدامها وتداولها ربما بطريقة غامضة مثل مفهوم العائلة والبدنة والعشيرة والخصائص التي تتصف وتميز بها كل منها كالاشتراك مثلا في وحدة النسب في العشيرة. وفي ذات الوقت وضع اهتمامه أيضا بالمصطلحات القرابية وما يرتبط بها من أمور متعلقة بالتفرقة بين الأب الفيزيقي والأب الاجتماعى وبأشكال تصنيف العائلة والأسس التي يتم التصنيف في ضوءها كأن يكون على أساس الأبوة والبنوة أو على أساس الأجيال أو حتى شكل الزواج ما إذا كان أحاديا أو متعددًا وداخليا أو خارجيا. وما يرتبط بكل هذا من جوانب وعلاقات مثل النسب ونظم النسب المختلفة في خط الذكور أو الإناث وبالتالي حقوق الإنتماء وحقوق الميراث وحتى حقوق الإقامة ذاتها. علاوة على اهتمامه ببعض المظاهر والقواعد السلوكية مثل قواعد التحريم والتجنب والاختلاط فيما بين الرجال والنساء وفقا لدرجة القربى بالدرجة الأولى. وكان من الطبيعي أن يهتم بدراسة الطقوس والشعائر على اختلاف نوعها ووظيفتها مثل طقوس الترشيد والتأهيل في بعض المجتمعات وطقوس الزواج والحمل والمولد والوفاة وطقوس الانتقال وما يتصل به من حكايات وأساطير.

وبوجه عام فقد صدرت للأستاذ ميردوك عدة مؤلفات تعتبر من أمهات ما
كتب في هذا المجال من بينها كتابه المعنون «معاصرونا البدائيون» Our Primitive
Contemporaries (١٩٢٤) و«ببليوجرافيا اثنوجرافية أمريكا الشمالية» -Eth-
nographic Bibliography of North America (١٩٤١) وكتابة الفذ عن «البناء
الاجتماعي» Social Structure (١٩٤٩) ثم «إطار للثقافات العالمية»
Outline of World Cultures (١٩٥٤) ومؤلفه الضخم الذي يعتبر عمله الرئيسي بعنوان
«الأطلس الاثنوجرافي» Ethnographic Atlas (١٩٦٧) وكلها كتابات مازالت توجه
البحث الأنثروبولوجي في الدراسات القرابية إلى اليوم.

★ ★ ★

عالم الاجتماع والسياسة والاقتصاد كارل جونار ميردال أحد كبار العلماء الذين اهتموا اهتماما خاصا بدراسة جماعات الأقليات سواء كانت أقليات سياسية أو دينية أو عنصرية أو عرقية أو من جنسيات مختلفة مما قد يتكون منها التركيب السكاني لمجتمع معين ولكنها لا تتمازج فيه تماما لتباين الاتجاهات واختلاف الأصول والظروف والأحوال إضافة إلى ما تلاقيه من تفرقة في المعاملة وفي الحقوق وفي النظرة والتقدير الاجتماعيين بشكل يعكس تمييزا أو تحقيرا يترتبان على تشابك وتداخل العديد من الوضعيات والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والواقع أنه ارتباطا بهذا الاهتمام دارت كتابات جونار ميردال التي كان من الطبيعي أن يفرد فيها حيزا كبيرا لمعالجة المشكلة السوسيواقتصادية من ناحية والمشكلة الثقافية السياسية من ناحية ثانية وما تفرزه هذه المشكلات من وضعيات وقضايا ومشكلات سواء ما كان منها في الدول النامية أو حتى في المجتمع الأمريكي نفسه. وربما نزولا على هذا السبب نفسه وضح اهتمامه الفائق بدراسة النظرية الاقتصادية على وجه التحديد بفرض الكشف عن طبيعة العوامل السياسية والاجتماعية وتأثيرها في تطوير هذه النظرية ونموها. وهو اهتمام بدأ مبكرا في الحقيقة حيث نشر وهو لم يزل في الثلاثين من عمره واحدا من أهم كتبه في هذا المجال تحت عنوان «العنصر السياسي في نمو النظرية الاقتصادية» *The Political Element in Development of Economic Theory* (١٩٣٠) ثم نشر بعد ذلك بعدة سنوات كتابه الهام الثاني تحت عنوان «ورطة أمريكية» *An American Dilemma* (١٩٤٤) عبارة عن دراسة لأوضاع الزواج في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ألقى الضوء على مظاهر التحامل والتفرقة العنصرية مركزا على إظهار مدى الصراع بين الأفكار المتخلفة التي يرتبط بها السود والتي تكشف عن وضعياتهم الثقافية والسياسية المتدنية والتباين بينها وبين ما يسود البيض ويرتبطون به من أفكار وأيديولوجيات أكثر تفتحا وتقدما. ولقد كان من أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة التي قدمها ميردال بالاشتراك مع جلايد فيدر *Vedder* ورونالد تاфт *Taft* الكشف عن الارتباط الوثيق بين طبيعة الظروف التي تعيشها هذه الأقلية (الزواج)

والزيادة الملحوظة في معدلات الجريمة والانحراف وسائر مظاهر الصراع لديهم ولدى غيرهم من جماعات الأقلية (المكسيكيين) علي وجه الخصوص مما يمثل تهديدا مباشرا للبيض من ناحية وهزة عنيفة لمكانة السود وعناصر حياتهم التقليدية من ناحية ثانية. مما يتوجب معه سرعة العمل على تحسين هذه الأوضاع وتغييرها بتحسين فرص العمل وظروف السكن والأقامة وما إلى ذلك من مظاهر الرعاية والاهتمام.

وتتابعت كتابات ميردال في الإطار نفسه ليكشف عن طريق بعض دراساته المقارنة عن طبيعة الظلم الاجتماعي وعدم المساواة التي ترزح تحت ثقلها العديد من المجتمعات والشعوب. فظهرت له دراسة رائدة تحت عنوان «ميكانيزم عدم المساواة القومية والدولية» - Mechanism of National and International In-equalitiy (١٩٥٦) أتبعها بعدم عام واحد بوحدة من أهم الدراسات في الموضوع بعنوان «النظرية الاقتصادية والأقاليم المتخلفة» Economic Theory and Under Developed Regions (١٩٥٧) حيث لفت الأنظار بشدة إلى أهمية العلاقات السياسية والاقتصادية بين الأمم الغنية والأمم الفقيرة مركزا بصفة خاصة على إبراز طبيعة العوامل الاجتماعية في التنمية.

لقد كانت إحدى الافتراضات الأساسية التي تسود الفكر الاقتصادي أن التقدم والنمو الاقتصادي هو مسألة أو مسئولية السياسات الحكومية. ولكن تأسيسا علي هذه الفرضية فقد ذهب ميردال إلى أنه ليس واضحا تماما نوعية التدخل الذي مارسه بعض الحكومات لإثارة وحفز عمليات التنمية وبخاصة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع أنه ساق الكثير من الأمثلة علي هذه الفرضية وبخاصة في كتابه «دراما آسيوية: بحث في فقر الأمم» Asian Drama: An Inquiry into the Poverty of Nations (١٩٦٨) إلا أنه أكد على مدى صدقها في حالة اليابان بالذات وما حققته من طفرات تنموية في ضوء ما أتبعته الحكومة من سياسات.

ومن الناحية الثانية فقد كان مما يقلقه كثيرا تلك الزيادات المطردة في السكان مما جعله يفرد جانبا كبيرا من دراساته في آسيا لهذه القضية بالذات فبين كيف أن هذه الزيادات السكانية مما يهدد تهديدا مباشرا أية عملية تنموية الأمر الذي انتهى به إلى تقرير تدخل الحكومات لضبط هذه الزيادة عن طريق وضع

السياسات والاستراتيجيات المناسبة المتعلقة بمسائل الخصوبة والزواج والمواليد والوفيات إلى جانب مشكلات الهجرة مما يستلزم ترشيد الوعي من ناحية وسن القوانين المناسبة من ناحية ثانية. وهو ما أوضحه على أى الأحوال فى كتاباته وبخاصة على نحو ما نرى فى كتابه «دولة الرفاهية: التخطيط الاقتصادى وتضميناته الدولية» Beyond the Welfare State: Economic Planning and Its International Implications (١٩٦٥).

★ ★ ★

بالإضافة إلى نشاطه الميداني الذي كان معظمه موجها بصفة أساسية للبحث في أنثربولوجيا أفريقيا فقد اشتهر أيضا باهتمامه الكبير بمشكلات وقضايا النظرية والمنهج التي دارت من حولها كل كتاباته تقريبا التي مازالت تعتبر لليوم مرجعا رئيسيا للباحثين في الانثربولوجيا التطبيقية على اختلاف توجهاتهم.

إنه عالم الانثربولوجيا والاجتماع سيغفريد نادل ولد في فيينا في شهر إبريل عام ١٩٠٣ ومنذ صغره ظهر شغفه بالموسيقى التي درسها في جامعة فيينا إلى جانب دراسته للفلسفة وعلم النفس. ومع أن ميله للموسيقى انعكس في كتابته السيرة الذاتية للموسيقار الإيطالي Ferruccio Benvenuto Busoni إلا أنه تحول إلى الانثربولوجيا حيث عمل تحت إشراف مالينوفسكي في إنجلترا لمدة عامين كاملين من عام ١٩٢٢ هيأته لأن يدخل ميدان البحث الحقل والعملي الميداني فقام بالعديد من البحوث في النوبة ونيجيريا وريتريا استغرقت الفترة حتى قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠) التي خدم خلالها في اريتريا وطرابلس.

ولقد قام نادل بالتدريس في عدد من أكبر الجامعات العالمية حيث عمل في جامعة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وفي الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٠ كان محاضرا في الأنثربولوجيا بجامعة ديرهام Durham بإنجلترا ثم في جامعة نورث وسترن ثم استاذا ورئيسا لقسم الانثربولوجيا والاجتماع في الجامعة القومية الاسترالية في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٦ حيث توفي في يناير ١٩٥٦ في كانبيرا Canberra وهي رحلة مكنته ولاشك من أن يرتاد الكثير من المشكلات النظرية.

والواقع أن نادل كان ينطلق من تصور أو فهم خاص للبحث الاجتماعي والانثربولوجي وهو فهم يعكس مدى تأثره بالاستاذ مالينوفسكي على وجه الخصوص. إذ كان يذهب إلى أن الحقائق الاجتماعية إنما تصدر عن حقائق سيكولوجية ولهذا فإن الشرح الكامل والتفسير السليم لأي مظهر سلوكي واجتماعي

ينبغي أن يعتمد على معرفة كاملة بالدوافع البشرية والشعور وذلك نزولا على قناعته بأن العمل الأساسي للعلم هو وصف وشرح وتفسير التصرفات والسلوك بغية توجيهها والتحكم فيها .

وفي داخل هذا الإطار صدرت كتاباته وأعماله كلها ميدانية كانت أم نظرية. فصدر له في عام ١٩٤٢ عمل ضخيم بعنوان A Black Byzantium تضمن تحليلا للأساس النظري للمنهج الأثنوجرافي ثم «عقيدة النوبة» Nube Religion (١٩٥٤) وأيضا «أرض النوبة» The Nuba Land وكذلك «أجناس وقبائل اريتريا» The Races and Tribes of Eritrea. هذا بخلاف مؤلفاته الأساسية التي اهتمت بالنظرية ومن بينها «أسس الانثروبولوجيا الاجتماعية» - The Foundations of Social Anthropology (١٩٥١) و«نظرية البناء الاجتماعي» The Theory of Social Structure وهو كتاب ظهر في عام ١٩٥٨ بعد وفاته بعامين اثنين.

★ ★ ★

ولد الفيلسوف والمنطقي الأمريكي إرنست ناجل في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٠١ ولكنه تلقى تعليمه ونال درجاته العلمية من الولايات المتحدة الأمريكية بدءاً من دراسته في سيتي كوليج في نيويورك ثم في جامعة كولومبيا التي قدر له أن يرتبط بها طوال رحلته العلمية التي استغرقت سني عمره فقد أشرف على تحرير المجلة الفلسفية Journal of Philosophy لمدة تزيد على ١٦ عاما ومجلة المنطق الرمزي Journal of Symblic logic وأيضاً مجلة «فلسفة العلم» Philosophy of Science وتأثراً كثيراً بفكر تشارلس بيرس Peirce وجورج سنتيانا Santayana وبرتراند راسل Russell.

ويوجه عام يعتبر ناجل واحداً من كبار أنصار المدرسة الطبيعية في كولومبيا التي أقامت تفرقة حاسمة وتمييزاً قاطعاً بين العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية متجهة بكليتها إلى الأخذ بالرياضة التي اعتبرتها بمنهجها التحليلي أقرب الاتجاهات إلى مسانيرة الروح العلمية. وهو الأساس الذي انطلق منه بفكره الذي عمل من خلاله على تطوير نظريته الخاصة. فالرياضة منهجها استنباطي بمعنى وضع فروض في صدر أو مقدمة العملية الاستدلالية حيث تستخرج منها النتائج مما يعني أن برهان صوابها لا يعتمد على أنها منطبقة على وقائع العالم الطبيعي. على حين يبدأ منهج العلوم الطبيعية بالمعلومات والشواهد التي يتم جمعها من الواقع اعتماداً على المشاهدة والملاحظة والتجريب ولهذا كانت القوانين في العلوم الطبيعية قوانين احتمالية الصدق بينما حقائق ونتائج العلوم الرياضية أقرب إن لم تكن بالغة دائماً درجة اليقين.

استهوته إذن منذ البداية الفلسفة الوضعية التي تعنى في جوهرها النظرة العلمية التي تقضى بأن تنحصر رؤية الباحث العلمي في حدود ما هو واقع والتي تجعل صدق الحواس أصلاً لا يشك فيه أو يناقش. وفي الوقت نفسه استهواه المنطق أيضاً الذي هو في جوهره رياضة ويقضى بتحويل الكيف إلى كم بعيداً عن المناقشات الواسعة والفضفاضة وإنما أقرب إن لم يكن مطابقاً للحساب والدقة.

وبالرغم من أن هذا الكلام يعنى أن ناجل كان من أنصار الوضعية المنطقية Logical Positivism إلا أن نظريته كانت ذات طابع خاص. فهى فى رأيه ليست مذهباً بقدر ما هى منهج للنظر والبحث العلمى ولهذا أطلقوا عليها اسم التجريبية العلمية مرادفاً بالضبط للوضعية المنطقية. ولكنه كان أكثر تحديداً عندما سعى إلى تطوير نظرية خاصة لما أطلق عليه الامبريقية المنطقية Logical Empiricism . واستدعى هذا مناقشته لبعض المفهومات الرئيسية مثل مفهوم الملاحظة ذاته ومفهوم التجربة وخاصة فى ارتباطها بقضايا الصدق والثبات وامكانيات التحقق التى ذهب البعض إلى أن التحقق عن طريق التجربة إنما يعنى التحقق بواسطة الحالات الفعلية التى يعيشها الفرد وحده على حين أن المعرفة العلمية هى معرفة تقوم على علاقات بنائية تتوحد فيها تجارب الفرد مع تجارب الآخرين.

الامبريقية المنطقية من وجهة نظره يمكن القول بأنها تختلف عن الاتجاهات التى غالى فيها البعض ممن ذهبوا إلى أنه لا معرفة ما لم تبدأ بتحصيل معطيات حسية فى محاولة للبرهنة على أن كل أشكال الاستشهادات والاحالات هى ذاتيات أو وجود يقوم بعيداً عن الملاحظة والتجربة أو لا معنى له وأنه هراء.

إن الفكر لا يكون فكراً بالمعنى الصحيح إلا إذا كانت له نتائج فعالة فى إحداث التغيير المنشود ولهذا فإن امبريقيته المنطقية لا تتجاهل أو تلقى بعيداً بالمشاعر والأفكار وحتى الاتهامات وإنما تقوم على قضيتين أساسيتين هما أولاً أن الأجسام أو المادة المنظمة هى الظروف الضرورية لكل الأحداث والنوعيات والكميات وللعمليات التى تقع فى الطبيعة والقضية الثانية هى أن مظاهر التكرار والتعددية التغيرات المتكشفة والتى نجدها فى الأشياء بما فى ذلك الملامح الفردية المميزة للأفراد كلها أمور واقعية وحقائقية ولا يمكن اختزالها لأى حقيقة أخرى.

ولقد صدر له عدد هائل من المقالات والدراسات والبحوث التى نشرت فى المجلات التى ترأس تحريرها بخلاف مؤلفاته وكتبه الرئيسية من بينها «مقدمة

للمنطق والمنهج العلمى» (1934) Introduction to Logic and Scientific Method
وكتابه «العقل المميز (السيد)» (1954) Sovereign Reason وكتابه الرائد: «منطق
بلا ميتافيزيقيا» (1957) Logic Without Metaphysics و«بناء العلم»
Teleology (1961) Structure of Science و«إحياء التيلولوجيا ومقالات أخرى»
(1979) Revisited and other Essays.

★ ★ ★

وصفه البعض بأنه فورة ذكاء وثورة وروح. أعمل عقله وفكره في محاولة لفهم نفسه وفهم الآخرين من حوله وفهم الكون بأكمله والقوى التي تسيّره فلا يكاد العقل يعرف شيئاً من كل هذا بعيداً عن انتفاضة الروح وتوثبها في تطلعها إلى المجهول.

اسمه بالكامل هيلموت ريتشارد نيبوهير لاهوتى وعالم أخلاق أمريكى كرس حياته لخدمة عقيدته (البروتستانتية) وتوضيح دور المسيحية لرفعة الإنسان وتحرره.

ولد نيبوهير في ريت سيتي Right City في الثالث من سبتمبر عام ١٨٩٤ لأسرة ينتمى كثير من أعضائها للكنيسة فهو الأخ الأصغر لرينهولد نيبور Reinhold (١٨٨٢ - ١٩٧١) من كبار اللاهوتيين في أمريكا. ومنذ أن تخرج قام بالتدريس في مدرسة بيل المقدس Yale Divinity School من عام ١٩٢١ وحتى وافته منيته عام ١٩٦٢. وهناك بعض المؤثرات الرئيسية التي تدخلت في تشكيل عقليته وتحديد اتجاهاته الفكرية إلى حد بعيد وفي مقدمة هذه المؤثرات فلسفة سورين كيركجارد Kierkegaard (١٨١٣ - ١٨٥٥) الذي يعتبر أبا الوجودية وأيضا العالم والمصلح اللاهوتى كارل بارت Barth (١٨٩٦ - ١٩٦٨) وأولهما ساعد عقله على أن يتحرر من جموده وأن يتجرد من أسطورة الثابت وخداع المثل الأفلاطونية وغيره مما أصبح ركائز أساسية في فكرته عن الزمان وعن الذات وعن المسؤولية بينما فتح له الثانى (بارت) باب العقيدة والإيمان المسيحى وما ينطويان عليه من مثل وأخلاقيات.

الموضوع الرئيسى الذى انشغل به نيبوهير على الرغم من مهام مناصبه العديدة التى تبوأها كان البحث في علاقة الإيمان المسيحى بالحضارة وهو ما استدعى بالضرورة معالجة فكرة الزمان التى انتهى فيها إلى الأخذ بالزمان الوجودى أو زمان الكينونة الفردية لا الزمان المتعلق بوجود العالم (كما عند كانط). وإن كانت قد ظهرت لديه مشكلة الصلة أو العلاقة بين الفردية التى ينبئ عليها الإيمان باعتبار أن الشعور الدينى هو شعور ذاتى بحث قبل أن يكون شعورا جماعيا (كما ذهب دوركايم مثلا) وبين ما قد تنطوى عليه الحضارة من بعض صفات الاستقرار أو الديمومة والثبات.

المخرج الذى اقتنع بسلامته لتفادى ما قد يكون فى القضية من تناقض كان يتمثل فى مقولة النسبية التاريخية والثقافية على اعتبار أنها مما يؤثر فى إيمان الأفراد وفى تفكيرهم الأخلاقى وفى مواقفهم العقدية بشكل ملحوظ. وعلى اعتبار أن ما يهم بالنسبة إليه هو وجود الإنسان ولأن الإنسان متناه فى الزمان والمكان فما يعنى إذن وجود الذات وما تعيشه من آنيات ولحظات ومواقف واختيارات. الأمر الذى يضع الإنسان (الذات) فى مواجهة مع مسئوليته ومصيره.

ولقد كتب نيבוهر العديد من المؤلفات والمقالات التى تناول فيها الكثير من قضايا الدين والإلزام الأخلاقى وفى مقدمتها كتابه المعنون «المنابع الاجتماعية للطائفية» The Social Sources of Denominationalism (١٩٢٩) ثم كتابه «مملكة الله فى أمريكا» The Kingdom of God in America (١٩٣٧) و«معنى الكشف» The Meaning of Revelation (١٩٤١) و«المسيح والثقافة» Christ and Culture (١٩٥١) و«التوحيد الراديكالى والثقافة الغربية» Radical Monotheism and Western Culture (١٩٦٠) ثم آخر كتبه التى نشرت بعد وفاته بعام بعنوان «الذات المسئولة» The Responsible Self (١٩٦٣).

★ ★ ★

روبرت الكسندر نيسبت منظر اجتماعى وسياسى أمريكى ولد فى لوس انجليس عام ١٩١٢ واشتهر أثناء عمله كأستاذ لعلم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا بتحليله الوظيفى للسلوك الاجتماعى وبمشاركته العميقة فى الجهود المبذولة والتي انتشرت منذ خمسينيات القرن الماضى وأخذت على عاتقها عبء تصنيف النظريات السوسيولوجية فى ضوء توجهها الأيديولوجى الذى ارتبطت به والذى اتخذته كنقطة انطلاق أو بداية لها.

وتعتبر معالجة روبرت نيسبت لنظرية علم الاجتماع فى علاقتها بالتراث الأخلاقى فى مقدمة هذه التصنيفات التى قدر لها الذيوع والانتشار حتى أصبحت من بين التقاليد الراسخة للعلم ويأخذ بها جمهور العلماء والباحثين حيث أبرز بعض المفاهيم الأساسية وشرع فى شرحها وتحليلها تحليلًا وظيفيًا متعمقًا يكشف عن ماهيتها وطبيعة الارتباطات والانعكاسات فيما بينها وتأثيرات ذلك بالتالى على الفرد والمجتمع على السواء وفى مقدمة هذه المفاهيم المجتمع المحلى والسلطة والمكانة والمقدس والاعتراب.

وتكشف عناوين الكتب والمؤلفات التى أصدرها نيسبت عن نوعية الاهتمامات التى شغلته فقد ظهر له فى عام ١٩٥٦ كتاب (بالاشتراك مع روبرت ميرتون) بعنوان «المشكلات الاجتماعية المعاصرة» Contemporary Social Problems حيث حللا معا «اللاوظيفية الاجتماعية» Social Disfunction وما ارتبط به بهذا المفهوم من ممارسات وظواهر مثل السحر Magic وهو كتاب اعتمد كثيرا فى تحليله على المادة والتصورات السيكلوجية بالرغم من أنهما لم يتطرقا إلى انعكاسات المفهوم على التماسك الاجتماعى بشكل مجرد.

وربما كان فى مقدمة كتاباته «التقليد الاجتماعى» The Sociological Tradition (١٩٧٠) الذى تناول بالعرض والتحليل رؤى ومواقف عدد من كبار الفلاسفة والاجتماعيين من أمثال توكوفيل de Toqueville وروسو Rousseau ودور كايم Durkheim وفيبر Weber وكونت Comte وجورج زيميل Simmel وأوستن

Austin وهيجيل Hegel وغيرهم اضافة إلى تحليله بعض المفاهيم الأساسية في العلم. هذا علاوة على عدد آخر من المؤلفات من بينها «المجتمع المحلى والقوة» Community and Power وآخر بعنوان «علم الاجتماع عند اميل دور كايم» The Sociology of Emile Durkheim (١٩٧٤) إضافة إلى كتابين آخرين رائدين أحدهما بعنوان «التقليد والثورة» Tradition and Revolt والآخر بعنوان «علم الاجتماع باعتباره شكلا فنيا» Sociology as an Art Form (١٩٧٦).

★ ★ ★

فهرست الأعلام

الصفحة	الأعلام	م
	- G -	
٩	GADAMER, HANS GEORG	١ جادامر، هانز جورج
١١	GARFINKEL, Harrold	٢ جارفينكل، هارولد
١٢	GEERIZ, Clifford	٣ جيرتز، كليفورد
١٥	GEIGER, Theoder	٤ جايجر، تيودور
١٧	GIDDENS, Anthony	٥ جيدنز، أنتوني
٢٢	GIFFORD, E. Winslow	٦ جيفورد، أ. وينسلو
٢٤	GINSBERG, Morris	٧ جينزبرج، موريس
٢٧	GLUCKMAN, Hernian Max	٨ جلوكمان، هيرمان ماكس
٢٩	GLUCK, Sheldon and Eleanor	٩ جلوك، شيلدون واليانور
٣١	GOFFMAN, Erving	١٠ جوفمان، ايرفينج
٣٣	GOLDMANN, Lucien	١١ جولدمان، لوسيان.
٣٧	GOODENOUGH, W.Hunt	١٢ جودإنف، و. هنت
٣٩	GOULDNER, Alvin	١٣ جولدنر، ألفين
٤٢	GOLDENWEISER, A.	١٤ جولد نفايزر، أ
٤٤	GREENBERG, Joseph	١٥ جرينبرج، جوزيف
٤٧	GULLIVER, H.	١٦ جليفر، هـ
٤٩	GURVITCH, George	١٧ جيرفيتش، جورج
	- H -	
٥١	HABERMAS, JURGEN	١٨ هابرماس، بيرجن
٥٤	HADDON, Alfred Cort	١٩ هادون، ألفريد كورت
٥٧	HARRIS, Marvin	٢٠ هاريس، مارفن
٥٩	HERSKOVITS, Melville	٢١ هيرسكوفيتز، ملفيل
٦١	HOEBEL, E.A.	٢٢ هويل، أ. آدمسون
٦٢	HOFSTADTER, Richard	٢٣ هوفستارتر، ريتشارد

الصفحة	الأعلام	م
٦٦	HOMANS, G. Casper	٢٤ هومانز، ج. كاسبر
٦٨	HOOK, Sidney	٢٥ هوك، سيدنى
٧٠	HORKHEIMER, Max	٢٦ هوركيمر، ماتس
٧٣	HOROWITZ, Irving Louis	٢٧ هوروفيتز، ايرفنج لويس
٧٦	HOWELLS, William	٢٨ هاولز، ويليام
٧٨	HROZNY, Bedrich	هروزنى، بدريش
٨١	HUNTINGTON, Ellsworth	٢٩ هنتجتون، الثورث
	- J -	
٨٣	JAKOBSON, ROMAN	٢٠ ياكوبسون، رومان
	- K -	
٨٥	KIDDER, ALFRED	٢١ كيدر، الفريد، ف.
٨٧	KROEBER, A. Louis	٢٢ كروبير، أ. لويس
٨٩	KUHN, Thomas Samuel	٢٣ كون، توماس صامويل
	- L -	
٩١	LACAN, JACQUES	٢٤ لاكان، جاك
٩٦	LASWELL, H. Dwight	٢٥ لازويل، هـ. دوايت
٩٨	LAZARSELD, Paul	٢٦ لازرسفيلد، بول
١٠٠	LEACH, Edmond, Ronald	٢٧ ليتش، ادموند رونالد
١٠٢	LEVI-STRAUSS, Claude	٢٨ ليفى ستروس، كلود
١٠٧	LEWIS, Clarence, Irving	٢٩ لويس، كلارنس، ايرفنج
١٠٩	LINTON, Ralf	٤٠ لينتون، رالف
١١١	LIPSET, S. Martin	٤١ ليبست، س. مارتن
١١٣	LOOMIS, Charles	٤٢ لوميز، تشارلس
١١٥	LOWIE, Robert Harry	٤٣ لوى، روبرت هارى
١١٨	LUKACS, Gyorgy	٤٤ لوكاتش، جيورج

الصفحة	الأعلام	م
١٢٠	LUNDBURG, George	٤٥ لندبرج، جورج
١٢٤	LYND, Robert and Hellen	٤٦ ليز، روبرت وهيلين
- M -		
١٢٧	MACIVER, ROBERT MORRISON	٤٧ ماكيفر، روبرت هاريسون
١٣٠	MALINOWSKI, Bronislaw	٤٨ مالينوفسكى، برونيسلاو
١٣٤	MANNHEIM, Karl	٤٩ مانهايم، كارل
١٣٧	MAUSS, Marcel	٥٠ موس، مارسيل
١٣٩	MARCUSE, H.	٥١ ماركيوزه، هربرت
١٤٢	MEAD, Margaret	٥٢ مسيد، مارچيت.
١٤٤	MERTON, Robert	٥٢ ميرتون، روبرت
١٤٧	METRAUX, Alfred	٥٤ ميترو، الفريد
١٤٩	MILLS, Charles Wright	٥٥ ميلز، س، رايت
١٥١	MOORE, Wilbert	٥٦ مور، ويلبورت
١٥٣	MURDOCK, George Peter	٥٧ ميرودك، جورج بيتر
١٥٦	MYRDAL, K. Gunnar	٥٨ ميردال، جونار
- N -		
١٥٩	NADEL SIEGFRIED	٥٩ نادل، سيغفريد
١٦١	NAGEL, Ernest	٦٠ ناجل، ارنست
١٦٤	NISBET, Robert	٦١ نيسبت، روبرت
١٦٦	NIEBUHR, Richard	٦٢ نيبوهر، ريتشارد



ا. علاء الدین شوقی

www.lisanarab.com

تم بحمد الله



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابطہ بدیل



